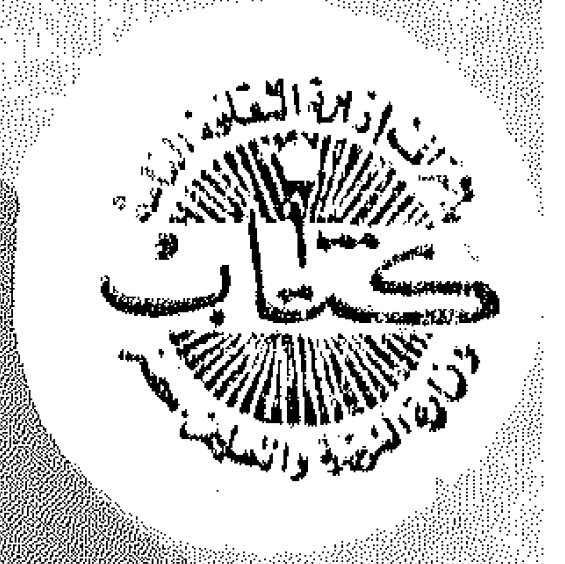
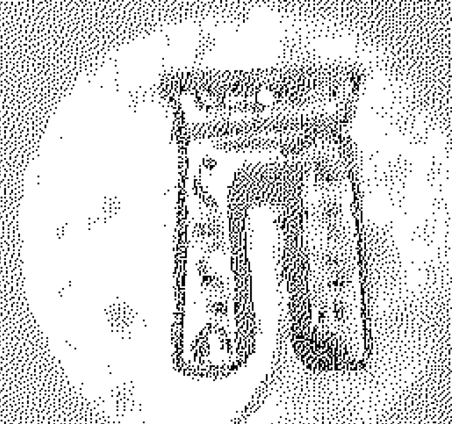
قصة حياة

ابراهام لنكولن



تأليف : ستيفان لورانت
ترجمة : احمد شنادى
راجعه : الدكتور شكرى عياد

الناشر
دار الكرنك



الألف كتاب (٣٥٦)

قصة حياة

ابراهام لنكولن

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٣٥٦)

قصة حياة

ابراهام لنكولن

تأليف

ستيفان لورانت

ترجمة
أحمد شناوى

راجعه
الدكتور شكرى عياد

الناشر

دار الكرنك

عمارة رمسيس . ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

١٩٦١

هـذه ترجمة كـتاب

THE LIFE OF ABRAHAM LINCOLN

تأليف

Stefan Lorant

✲

✲

الناشر

The New American Library of
World Literature Inc,
New York, U.S.A

مقدمة

كل أمة ناشئة لا بد لها أن تخوض معركتين كبيرتين : معركة الحرية ومعركة الوحدة. أما معركة الحرية فإن الشعب يندفع إليها بغريزة حب البقاء، فإذا هو كتلة متراصة تتحدى حديد المستعمر وناره، وتنتزع من الغاصبين حقها فى الحياة، ولا يشذ عن إجماع الشعب على المطالبة بحريته إلا أفراد معدودون باعوا ضمائرهم، وهؤلاء سرعان ما ينفيهم الشعب من بين صفوفه وينزل بهم عقابه الصارم . وأما معركة الوحدة فإنها أطول وأقسى ، وقد يشتبه فيها الحق على عدد من الناس فيضلون وهم يحسبون أنهم مهتدون ، وقد تشتعل نيران الحرب الأهلية فإذا الشعب الواحد يأكل بعضه بعضاً ، وإذا الكتلة المتراصة التى لم تحطمها ضربات المعتدى ، تبدو وكأنها توشك أن تتفتت من تلقاء نفسها .

ذلك أن الشعب لا يكاد يتنسم بعض أنسام الحرية الوطنية حتى يبدأ مفهوم هذه الحرية فى الاختلاط عند فئات كثيرة منه ، فتتوهم هذه الفئات — أو توهم نفسها — أن معنى الحرية هو حريتها هى فى أن تمارس أى عمل تراه محققاً لرخائها وسعادتها ، وتظهر الأنانية التى تقدم رخاء الفئة القليلة على رخاء المجموع ، ورخاء الحاضر على رخاء المستقبل ، ورخاء جيل واحد على رخاء الأجيال التى تمتد عبر آلاف السنين .

ولمعركة الوحدة أبطالها ، كما أن لمعركة الحرية أبطالها . والبطل فى معركة الوحدة لا يحتاج إلى الشجاعة والتصميم وبراعة القيادة فحسب ؛ بل إنه محتاج قبل هذا كله إلى بصيرة نفاذة حتى لا يشتبه عليها الحق بالباطل ، وطاقة خلقية عظيمة تلتق فيها الرحمة والحزم بحيث لا يفسد أحدهما الآخر ، ولا يطغى أحدهما على الآخر ، وصبر كصبر الأنبياء على جهل الجهلاء ، وتهجم الأعداء ، ودس المغرضين ، ورياء المتطفلين .

وهذا هو مغزى سيرة هذا البطل الأمريكى أبراهام لنكولن . فهذا الرجل

الذى خرج من أعمق أعماق الشعب كما يخرج الأبطال عادة ، كان يفهم حق الفهم واجبه الثقيل ، ويعلم أن عبئه أعظم من العبء الذى حمله چورچ واشنطون فقد كانت المسألة التى تتقرر فى زمن لنكولن هى : هل يبقى الشعب الأمريكى شعباً متحداً ، فتتكامل موارده وإمكانياته جميعاً من أجل رخاء أبنائه على مدى الأجيال ، أم يتفكك إلى ولايات غير مترابطة ثم دويلات مستقلة ، من أجل مصلحة فئة قليلة من ملاك العبيد ؟

وهذا الكتاب يصدر اليوم ونحن نشهد فترة من التاريخ تداخلت فيها معركة الوحدة ومعركة الحرية ، فأصبحت الشعوب الناشئة تخوضهما معاً ، وأصبحت الدول المستعمرة لا تكاد تضطر إلى التراجع أمام ثورة الشعب حتى تخلق عوامل الفرقة والانقسام بين صفوفه من أجل تفتيت وحدته .

ولكن معارك الحرية والوحدة الوطنية تنتصر فيها الشعوب دائماً ؟

شكرى محمد عياد

القسم الأول

١ ـــ سنواته الأولى :

فى كوخ صغير بقفار كنتاكى ، لا يزيد عرضه على ثمانى عشرة قدماً ولا يزيد طوله على ست عشرة قدماً ، أرضه من التراب وينفذ إليه الضوء من خلال نافذة يتيمة ، وأمام مدفأة مفتوحة ؛ يقوم سرير تكسوه أعواد القمح وجلود الدببة . . . فى هذا المكان وفى الثانى عشر من فبراير عام ١٨٠٩ ولد أبراهام لنكولن .

وكان والد هذا المولود الجديد يشتغل بالنجارة ، وكان رجلا بديناً ؛ مستدير الوجه أسمره ، فاحم الشعر ، رسمته الكتب الكثيرة التى ألفت عن ابنه الشهير فى صورة إنسان دائم التنقل ، سيء التصرف ، لا يصلح لشيء على الإطلاق ، ولكن تاريخه لا يدل على شيء من هذا القبيل . لقد كان توماس لنكولن إنساناً رزيناً ، دءوباً على عمله ، مثابراً ، لم يلق نجاحاً كبيراً فى حياته ، ولكنه مع هذا لم يكن فاشلا . كان يمتلك مئات الأفدنة ، ولم يخل بيته من حصان يستعمله . ولقد جاء ترتيبه فى سجل للضرائب سنة ١٨١٤ الخامس عشر بين ملاك الأراضى الذين بلغ عددهم ثمانية وتسعين .

قدم أجداده من انجلترا ، عند ما هاجر صامويل لنكولن ، وكان يعمل صبى نساج ، من تلك البلاد فى سنة ١٦٣٧ ، واستقر به المقام فى هنجهام بماساشوستس ، ومن هناك انتشر آل لنكولن إلى نيوجرسى وبنسلفانيا وفرچينيا ، ثم ضربوا صوب الغرب على طول الطريق القفر إلى كنتاكى ، وفى هذه الولاية تزوج توماس لنكولن ، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره ، من نانسى هانكس فى الثانى عشر من يونية سنة ١٨٠٦ وكانت عندئذ فى الثانية والعشرين .

ونحن لا نعرف الكثير عن نانسى هانكس سوى أنها كانت مهاجرة بسيطة ، لم تعرف القراءة ولا الكتابة ، وستظل إلى الأبد شخصية مبهمة . وقد وصفها ابن عمها بأنها « امرأة سريعة الفهم ذكية ، كيسة ، حبتها الطبيعة عقلا لماحا ، وذاكرة قوية ، تجيد الحكم على الأشياء ، وكانت عطوفاً متدينة ، تميل إلى الروحانيات والمثل العليا » . هل كانت نانسى هذا كله أم كان ذلك مجرد خيالات فى ذاكرة دنيس هانكس ؟ لسنا ندرى . وقد تزوجت والدتها من هنرى سپارو فى سنة ١٧٩١ بعد مولدها بسنوات ، وثمة تكهنات كثيرة عن والد نانسى الحقيقى ، فكان لنكولن يعتقد أنه كان مزارعا بولاية فرچينيا، من أصل طيب ، بينما رأى آخرون غير هذا الرأى .

واستقر آل لنكولن بعد الزواج فى إليزابيث تاون حيث كان توماس يمتلك منزلا ، وفى تلك المدينة رزقا بأول طفلة لهما وهى سارة إذ ولدت فى العشرين من فبراير سنة ١٨٠٧ . ولم يمض وقت طويل حتى اقتصد توماس من المال ما مكنه من شراء ٣٠٠ فدان دفع ثمنها مائتى دولار نقدا . وكانت هذه الأرض الجديدة تبعد ثمانية عشر ميلا عن إليزابيث تاون (بالقرب من هود جنفيل الحالية) فى العراء على خليج نولين ، حيث كان الجيران قلة ، والحياة موحشة ، وانتقل توماس وزوجته وابنته إلى تلك الأرض فى شتاء سنة ١٨٠٨ .

كان فى هذه الأرض كوخ خشبى صغير على رابية بالقرب من عين ماء ، وفى هذا الكوخ كانت نانسى تنتظر طفلها الثانى . إن ابن العم دنيس يذكر مولد ذلك الطفل فى صباح أحد أيام فبراير الباردة ، فقد ذكر لأحد الصحفيين بعد ذلك بثمانين عاماً أنه أتى إلى تلك الحجرة بعد مولد الطفل بقليل ، فوجد نانسى فى سريرها تفيض سعادة ، وتوماس قد أشعل ناراً وألحف زوجه وابنه بغطاء من جلد الدب حتى تستدفىء ، وبعد ذلك حضرت عمة نانسى ، وحملت المولود الجديد ، وغطته بفستان صوفى أصفر وقميص

من القطن ، وقامت بعد ذلك تطهو بعض ثمار التوت البرى المجفف فى العسل لنانسى وغسلت الآنية ، ونظفت المكان ثم عادت إلى بيتها . ولم تزد العناية الطيبة التى لقيتها الوالدة والمولود عن ذلك . إنها صورة حية ، ولعلها صادقة .

لم يكن العالم عندمولد الطفل الجديد أسوأ أو أفضل مما عليه العالم عادة. كان هناك حرب ، وكان هناك سلام ، كان هناك غنى وفقر ، وحب وكره ، وسعادة وشقاء . وفى الولايات المتحدة كان توماس جيفرسون فى نهاية فترة رياسته الثانية ، وكان الاتحاد يضم سبع عشرة ولاية عددسكانها سبعة ملايين ومئتا ألف نسمة . منهم مليون وتسعمائة ألف من العبيد . وفى أوربا كانت بريطانيا فى حرب مع فرنسا تحاول إنزال الهزيمة بنابليون ، وفى تلك الفترة أوقفت الولايات المتحدة تجارتها مع المتحاربين آملة أن تظل على الحياد .

ولكن آل لنكولن كانوا لا يأبهون كثيراً بالسياسة . كان توماس يفلح أرضه ويكسب بعض المال من اشتغاله بالنجارة . وكان يصطاد الحيوانات البرية والأسماك . أما نانسى فكانت تعنى بالكوخ وتنظفه ، إلى جانب الطهى وصنع الخبز ، والغسيل ، والحياكة ، ورعاية الطفلين .

وقد ثبت أن أرض مزرعة خليج نولين جدباء ، ومن ثم اشترى توماس قطعة أخرى من الأرض فى منطقة أكثر سكانا على طريق كمبرلاند القديم ، الذى كان يستخدم كثيرا فى السفر بين لويزفيل وناشفيل .

وانتقلت الأسرة إلى هناك فى سنة ١٨١١ . وقد استرجع لنكولن بعد ذلك ماوعته ذاكرته عن منزل الأسرة فى خليج نوب فقال : «كانت مزرعتنا تتألف من ثلاثة حقول ، تقع فى واد تحيط به التلال العالية ، والأخاديد العميقة . وعندما كانت الأمطار تتساقط بغزارة على التلال كانت المياه تنحدر إلى الأخاديد وتغرق مزارعنا . وآخر شىء أذكر أننى قمت به هناك كان بعدظهر أحد أيام السبت ، إذ قام الصبية الآخرون بزراعة

الأذرة فيما كان يعرف بالحقل الكبير، وكان عبارة عن سبعة أفدنة، وقمت أنا بزرع بذور القرع حيث كنت أضع بذرتين فى كل صف بعد صف. وأمطرت السماء بغزارة على التلال يوم الأحد التالى، ولم تسقط قطرة واحدة فوق الوادى، ولكن المياه التى انحدرت من أعلى التلال أتت على كل شىء فى الحقل، على الأذرة وعلى بذور القرع.

لقد كانت بقعة جميلة من الأرض، تستهوى أى طفل، سواء هام فى الغابات أم خاض فى الخليج، أم نصب الفخاخ للأرانب والفيران أم صحب والده فى صيد الرقون.

وعند ما بلغ أبراهام السادسة من عمره، بدأ يدب إلى المدرسة ليلتقط بعض القراءة والكتابة والحساب على يدى معلم، ولكنه تعلم مما يحيط به أكثر مما تعلم فى المدرسة. لقد تعلم من المنخفضات والأخاديد ومياه الخليج الصافية، ومن الأرض ومايكتنفها من سلام وهدوء منذ الأزل.

وعاشت الأسرة خمس سنوات بمزرعة خليج نوب. ثم كان يوم من شتاء سنة ١٨١٦، وكانت السنة شديدة البرودة حتى إنهم كانوا يذكرونها فيقولون: «سنة ألف وثمانمائة والصقيع حتى الموت»، فى ذلك اليوم شد آل لنكولن الرحال إلى إنديانا. وكان توماس، مثل غيره من الذين أقاموا فى كنتكى، يواجه صعوبات كبرى فى تسجيل أرضه، إذ اضطر إلى الالتجاء إلى القضاء ثلاث مرات ليثبت ملكيته للأرض التى اشتراها والتى عمل بها وأصلحها، أما الآن فهو ذاهب إلى ولاية مسحت الحكومة أرضها، فلا صعاب فى التملك ولا مضايقات بسبب الأرض.

وصحب آل لنكولن إلى الولاية الجديدة آل سپارو، وهم عمة نانسى وعمها وربيبهما دنيس هانكس. وكانت وجهة الجميع الغابة الغنية الخصبة بالقرب من خليج ليتل پيجون، التى تبعد ميلا ونصف ميل إلى الشرق من جنترى ڤيل.

ويذكر دنيس « أن توماس أخذ معه عدة النجارة ، وكذلك أربعمائة جالون من الويسكي ليقايض بها على أرض من مستر جنترى . وكانت الأرض في مقاطعة سبنسر ، يفصلها عن نهر أو هيو قطعة أرض أخرى ، وكان علينا أن نقطع الأشجار لنشق طريقاً إلى الأرض ، ولكنها كانت أرضاً طيبة مليئة بالأخشاب ، تيسر للنسوة جمع ما يحتجنه ، وفيها خليج تذهب الغزلان لتلعق الملح على شاطئه ، وينبوع ماء عذب . »

وكان المنزل الجديد في منطقة مقفرة « تعيش في غاباتها كثير من الدببة وغيرها من الحيوانات المتوحشة . » واستقرت الأسرتان في تلك الغابات ، وكان عبؤهما الأكبر إزالة الأخشاب التي لا لزوم لها . وبدأ الجميع يزرعون القمح والذرة والشوفان ، وبنوا كوخاً ، وأصبحوا بالتدريج يتمتعون بشيء من الراحة .

وكانت نانسي تقوم بشيّ ما يأتي به توماس من صيد برى في المقلاة ذات المقبض الطويل ، وتحمر لحم الخنزير المقدد . كما كانت تقوم بإعداد الخبز في الفرن الذى بنوه لهذا الغرض من الطين . كان الطعام متوفراً لديهم ، سواء في ذلك الديكة الرومية البرية ، والدجاج والسمك الذى كانوا يصطادونه من الخليج . وكانت نانسي تجمع التوت البرىّ في فصل الصيف وتجففه ، وفي الخريف كانت تجمع التفاح والقرع ، أما ليالى الشتاء الطويلة فكانت تقضيها في الغزل والنسيج لصنع البطاطين الصوفية وملابس الأطفال .

ومر عامان من العمل والحياة التي لم يكن فيها الكثير مما يدعو الإنسان إلى تذكره . أما عام ١٨١٨ فكان عاماً لا ينسى ، عاماً مليئاً بالمآسى ، مرض فيه توماس سپارو وزوجته بالتسمم وماتا ، ثم مرضت نانسي ، ولحقت بهما .

إن دنيس مؤرخ تلك الحقبة يذكر تلك الأيام جيداً ، إذ يقول : « يا إلهى ! إنى لن أنسى الشقاء والبؤس الذى شهده ذلك الكوخ في الغابة

عندما ماتت نانسي . لقد قمت أنا وأبراهام بمساعدة توم فى عمل النعش . أخذ توم كتلة من الخشب الذى تبقى بعد بناء الكوخ وساعدته فى شقها إلى ألواح وتسويتها . وقد كنت أنا وأبراهام نمسك تلك الألواح حتى يقوم توم بثقبها ووصل بعضها ببعض بمسامير من الخشب صنعها أبراهام . »

لقد كان شتاء حزيناً ، ووقتاً صعباً ، اكتنفته الوحدة والبؤس ، وبدأت سارة ترعى شئون البيت مع أنها لم تكن جاوزت الثانية عشرة .

واحتاج توماس إلى زوجة كما احتاج الأطفال إلى أم . ومن ثم ذهب إلى إليزابيث تاون ليتحدث فى هذا الصدد إلى سارة بوش التى كان قد خطبها قبل زواجه من نانسى هانكس .

وكانت سارة بوش أرملة فى ذلك الحين ، إذ كان زوجها جونستون قد توفى تاركاً لها ثلاثة أطفال .

وكان اللقاء بين توماس لنكولن وسارة بوش جونستون قصيراً . قال توماس : « إننى لا زوجة لى يامس جونستون ، وأنت لا زوج لك . لقد أتيت إليك أطلب يدك . إننى أعرفك منذ كنت طفلة ، كما أنك تعرفيننى منذ كنت صبياً . ليس لدىّ وقت أضيعه ، فإن كنت راغبة فى الزواج منى فعلينا أن نتم ذلك فوراً . » فأجابته سارة قائلة : « تومى ، إننى أعرفك جيداً ، ولا اعتراض لدىّ على الزواج منك ، ولكننى لست مستعدة للزواج فوراً ، لأن علىّ بعض الديون التى يجب أن أدفعها أولا . »

وطلب إليها توماس أن توافيه بقائمة تلك الديون ، وقام بسدادها فى نفس الليلة ، ثم تزوجا فى الصباح التالى . وكان ذلك فى الثانى من ديسمبر سنة ١٨١٩ م.

وفى اليوم التالى حمل توماس صندوق سارة ومغزلها وآنيتها وأطباقها وكل مالديها من أدوات منزلية على عربة اقترضها ، واصطحبها إلى إنديانا

هى وأطفالها الثلاثة: إليزابيث ، وكانت فى الثانية عشرة، وماتيلدا ، وكانت فى الثامنة ، وجون وكان فى الخامسة من عمره .

ولم يكن ما وجدته زوجة توماس لنكولن الجديدة فى خليج پيجون شيئاً يسر القلب . لقد وجدت كوخا لا نوافذ له ولا أرضية ، كما رأت قذارة الطفلين وعدم الاهتمام بهما ، فطلبت من دنيس أن ينقل بنك النجارة إلى خارج الكوخ « قرب حوض الحصان » ، وأن يملأ الحوض بماء من العين ، ثم أخرجت قرعة بها صابون عطرى وأخرى لقذف الماء ، وأمرت الأطفال أن يغتسلوا قبل العشاء .

وقام توماس بتركيب أرضية للكوخ من الخشب الذى قطعه وسواه حتى يمكنها أن تنظفه ، ثم صنع بعض الأسرة والكراسي الجديدة ، وغطى سقف الكوخ بألواح الزنك حتى يمنع تسرب الثلج إليه .

وكان الأولاد الثلاثة أبراهام لنكولن ، ودنيس هانكس ،وجون جونستون ينامون فى العلية ، أما سارة لنكولن وابنتا جونستون وتوماس وزوجته فكانوا ينامون فى الطابق الأرضى ، ومن ثم فقد كانت الحجرة الصغيرة تؤوى ثمانية أفراد .

وكان أبراهام يحب أمه الجديدة ، كما كانت هى شديدة الحب له . لقد قالت بعدما تقدمت بها السن : « إنه كان أحسن صبى رأيته فى حياتى ، لم أؤنبه بكلمة قاسية طول عمرى ، إذ كان تفكيره وتفكيرى المتواضع متفقين يسيران فى اتجاه واحد . » وقال لنكولن : « إننى مدين بكل ما أنا عليه وما آمل أن أكونه لتلك الأم الملاك . » كانت تشجعه على القراءة، «فقرأ (إيب) كل ما وصل إلى يديه من كتب ، وكان إذا صادفته فقرة أعجبته فى أثناء قراءته دونها على ألواح الخشب حتى يتيسر له الورق فينقلها إليه ، ويظل يقرؤها ويرددها . » وقد قالت أيضاً : « إن إيب كان سريع الحفظ قوى الذاكرة ، وكان إذا تعلم شيئاً أتقنه واستوعبه . »

قرأ خرافات ايسوب وروبنسون كروزو ، وحياة واشنطن لويمز ، وتقدم الحجيج لبنيان وتاريخ الولايات المتحدة لجريشو ، وتعود قراءة الإنجيل . وتذكر ربيبة أبيه أنه عندما كان الأب والأم يذهبان إلى الكنيسة كان أبراهام يحضر الإنجيل ويقرأ منه ، ثم ينشد إحدى الأغنيات الدينية ونحن نتبعه فى الغناء . كان يقوم بمهمة الوعظ ونحن نبكى .

وعندما كان فى العاشرة رفسه حصان مذعور فوقع على الأرض ففاقد الوعى . حدث ذلك فى الطاحونة وهو يسوق الحصان لكى يطحن بعض القمح ، وبدأ يستحث الحيوان ليقوم بالمهمة قائلا : « أسرع أيها الحصان العجوز ! » ولكنه لم يكد يقول أسرع حتى رفسه الحصان فوقع ففاقد الوعى. وعند ما أفاق فى اليوم التالى أكمل بما لم يكمله أمس قائلا : « أيها الحصان العجوز » . وقد يكون لهذا الحادث علاقة بما كان يبدو عليه بعد ذلك من كآبة وحزن .

وكان أبراهام فارع الطول ، ولما بلغ السابعة عشرة كان طوله ست أقدام وبوصتين ، ووزنه مائة وستين رطلا . وكان الجيران يستأجرونه فى شق القضبان وتمهيد الأرض ، وكان ماهراً فى استخدام البلطة ، وقال عنه أولئك الذين عرفوه إنه كان كسلان « دائم القراءة والتفكير » .

وكان من عادته أن يمشى فى الأمسيات إلى جنترى ڤيل ، ويقضى الوقت متسكعا فى محل البقالة هناك ، وكان محدثاً لبقا ذا موهبة فى تقليد الآخرين ، وقدرة على الخطابة ، وكان يقص القصص ولا يجاريه أحد فى القدرة على إضحاك الآخرين .

وفى التاسعة عشرة من عمره استأجره جيمز جنترى لكى يأخذ قاربا مشحوناً بالمحاصيل إلى نيوأورليانز . وصحبه فى هذه الرحلة ابن جنترى على طول ساحل السكر وهناك اشتبكا فى عراك مع جماعة من الزنوج هاجمتهم .

وأخيراً وصلا إلى نيوأورليانز ، وكانت أول مدينة كبيرة يراها

لنكولن . لقد كانت بالنسبة للشاب المهاجر عالماً جديداً خلاباً مملوءاً بالأناقة والسحر .

وعندما عاد لنكولن إلى بيته وجد أباه مرة أخرى فى حالة انتقال . لقد كان محصول المزرعة فى إنديانا ضعيفاً ، كما هاجم وباء تسمم اللبن الماشية . وكان جون هانكس يعيش فى إلينوى ، ومن هناك كان يبعث بأنباء طيبة للغاية عن الأرض ، ومن ثم قرر توماس أن يلحق به . وقبل أن ينتصف فبراير كان قد باع أرضه لقاء ١٢٥ دولارا ، كما باع قمحه وخنازيره ، ثم حمل كل ما يملكه من فراش ومتاع وأفران وآنية فوق عربات تجرها ثيران ، وبدأ رحلته البطيئة الشاقة . وتحركت الأسرة كلها معا ، وكانوا ثلاثة عشر شخصا . وكانت ابنتا جونستون قد تزوجتا ، إحداهما من دنيس هانكس ، والأخرى من سكواير هول ، وأنجبت الأولى أربعة أطفال ، والثانية طفلا واحداً . أما سارة أخت لنكولن فلم تكن معهم ، لأنها كانت قد تزوجت قبل ذلك بثلاث سنوات من آرون جريجسبي ، وتوفيت بعد زواجها بعام واحد فى أثناء الوضع .

ووصلت الجماعة الصغيرة إلى ضفة نهر سانجامون على بعد حوالى عشرة أميال من ديكاتور بعد رحلة طولها مائتا ميل ، عبرت خلالها كثيراً من الخلجان والأنهار التى تجمد ماؤها . وهناك استقر بهم المقام ، فبنوا لهم كوخا وأعدوا من القضبان « ما يكفى لإقامة سور حول عشرة أفدنة فلحوها وزرعوها قمحاً فى نفس العام » .

وجاء الشتاء ، وكان شديداً قارساً ، كانت السماء تثلج ثم تمطر ، ثم يتجمد المطر ويسقط عليه الثلج ثانية ، وكانت الأبقار والخيول تحطم قشرة الثلج . وعندما انزاح « الجليد الكثيف » غادر أبراهام المنزل كى يركب نهر سانجامون مع جون هانكس وربيب أبيه جون جونستون وقد استأجرهم دنتون أوفت ، وهو رجل متعدد الأعمال من تجار الحدود ، لنقل بعض

البضائع إلى نيو أورليانز . لقد التقوا بأوفت بالقرب من سبرنجفيلد ، ولكنهم لم يجدوا قاربا ، ومن ثم قاموا بقطع بعض الأخشاب ونشرها ألواحا ، وصنعوا قارباً وحملوه ببراميل لحم الخنزير المقدد والغلال والخنازير الحية، ثم أقلعوا بحملهم .

ولقد أحس أوفت الذى رافقهم فى بدء الرحلة « بميل إلى أبراهام » ، ولما كان يشعر أنه يستطيع الاعتماد عليه فقد أمضى معه عقداً يعمل بموجبه كاتباً لحساباته عقب عودته من أورليانز ، على أن يكون مسئولا عن متجره وطاحونته فى نيوسالم . »

وفى يوليه عام ١٨٣١ وصل لنكولن إلى نيوسالم ، وكان عمره إذ ذاك اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ أشده ، واستقل بأمر نفسه ، ولكنه على حد قوله فيما بعد : « لم أكن أعرف الشىء الكثير . كنت أقرأ ، وكنت أعرف الحساب إلى معادلات الدرجة الأولى ، ولكن لا شىء أكثر من ذلك . فأنا لم أدخل كلية أو معهداً فى حياتى كطالب منتظم ، وكل ما تلقيته من تعليم إنما التقطته من حين إلى حين تحت وطأة الحاجة . »

ولما سأله أحد رجال الدين ، وكان يعجب « كيف تملك لنكولن هذه المقدرة الفائقة على تصريف الأمور . . فإن تلك المقدرة كانت ولا بد ثمرة التعليم » أجاب لنكولن فى شىء من التأمل : إنها لا تتفق لإنسان بالفطرة وحدها، ثم أضاف إلى ذلك قوله : « أنا لم أذهب إلى المدرسة أكثر من اثنى عشر شهراً طوال حياتى ، ولكن الأمر كما تقول لا بد يرجع إلى الثقافة فى شكل من أشكالها . . . ومن بين ذكرياتى الأولى ، أذكر كيف كنت أتضجر وأنا طفل صغير عندما يتحدث إلىّ إنسان بطريقة لا أفهمها ، وأعتقد أننى لم أتضجر من شىء آخر فى حياتى كما تضجرت من هذا . كان يعكر صفوى دائما وما زال كذلك حتى اليوم . وأذكر كيف كنت آوى إلى حجرة نومى الصغيرة بعد سماع ما كان يتحدث به الجيران مع والدى فى بعض الأمسيات

وكيف كنت أمضى وقتاً طويلا من الليل أذرع الحجرة جيئة وذهابا محاولا أن أتعرف على المعنى الدقيق لأحاديثهم التى كانت تبدو لى إذ ذاك ممعنة فى الغموض والإبهام . ولم أكن لأستطيع النوم عندما أبحث عن فكرة رغم أنى غالباً ما كنت أحاول أن أنام ، فلا أهدأ حتى أعتقد أنى وجدتها ، ومع هذا لا أقتنع حتى أكررها مراراً ، وأصوغها فى لغة مبسطة على قدر إدراكى ليفهمها أى صبى أعرفه . وقد كان ذلك شعورا جارفا يتملكنى ، وما زال كذلك ، إذ أنى لا أهدأ حين أستغرق فى التفكير حتى أحدد الفكرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . »

وفى الوقت الذى كان يخوض فيه لنكولن معركة الرياسة سأله أحد الصحفيين عن أيام طفولته ، فأجاب : إنه من العبث محاولة العثور على شىء ذى بال عنه وعن طفولته . « ويمكن تلخيص حياتى كلها فى جملة واحدة تجدها فى مرثية جراى[1] وهى (سيرة الفقراء القصيرة اليسيرة) تلك هى حياتى ، وهذا كل ما تستطيع أنت أو غيرك أن تصنع منها . »

---

(١) قصيدة مشهورة فى الأدب الإنجليزى ، يرثى بها الشاعر توماس جراى (١٧١٦ — ١٧٧١) موتى الفقراء وفيها هذه الأبيات :

لا يهزأن الطموح بكدحهم النافع ، ومسراتهم الهادئة ، ومصيرهم المتواضع ، ولا تسمعن العظمة ببسمة ازدراء ، سيرة الفقراء القصيرة اليسيرة (المراجع)

٢ — كسب العيش :

وعندما آن له أن ينزل لأجل غير مسمى فى قرية نيوسالم ، وكان نزوله إذ ذاك معتمداً على نفسه لأول مرة فى حياته ، لم يكن هناك سوى قلة من الأسرات تسكن تلك القرية . كان مجتمعا صغيراً ولم يكبر قط ، والواقع أن عدد السكان فى هذه القرية لم يزد حتى فى أزهى أيامها عن مائة شخص .

قام ذلك الشاب النحيل بجولة فى القرية ، وتعرف على بعض من أهلها ، وعند ما حضر دانتون أوفت ومعه البضاعة افتتح المتجر فى الحال . وكان المتجر على شاكلة محال الحدود الأخرى : تكدست على رفوفه الفراء والقفازات والجلود والأوانى الخزفية والأطباق والأوانى الزجاجية ، ووضع فوق المناضد السكر والملح والبن المستورد عن طريق سانت لويس ، وازدحمت جدرانه وأركانه بالأسلحة والسروج وأنيار الثيران والعدد اليدوية .

وكان المحل يقوم على شاطىء نهر سانجامون الصخرى بالقرب من الطاحونة ، مجاورا لصالون بيل كلارى الذى أنشأ أخوه قرية كلارى جروف وكانت تؤم ذلك الصالون ثلة من الشباب المتهور مدمنى الخمر ، شديدى المراس ، وكان زعيمهم جاك أرمسترونج أقواهم جميعاً ، ولكن دانتون أوفت كان يعتقد أنه ليس ثمة أحد أقوى من كاتبه الذى يستطيع — على حد زعمه — أن يصرع أى رجل فى الحى . ولكى يثبت جاك أرمسترونج كذب هذه الدعوى تحدى لنكولن أن ينازله . وكان ذلك حدثاً من أهم أحداث القرية ، ولكن أحداً منهما لم يكسب المبارزة ، غير أن لنكولن أصبح محل إكبار شباب القرية جميعاً منذ ذلك اليوم .

وكانت الساعات تنقضى سراعا فى المتجر ، وإذا جاء عميل تلبكأ ليتحدث مع لنكولن ، أما إذا خلا المتجر من العملاء فكان لنكولن يمضى وقته فى القراءة والاستذكار والدرس . وقد توطدت صداقته مع المدرس منتور

جراهام ، الذى علمه الرياضة ، وشجعه على دراسة قواعد اللغة . وكان قروى آخر لا يميل إلى العمل واسمه جاك كليسو يقرأ له الشعر ، وبذلك عرفه بسحر شكسبير وروبرت برنز .

وعندما أقبل الربيع قرر لنكولن أن يتقدم المجلس التشريعى بالولاية. وقد شجعته على ذلك مكانته الطيبة بين جيرانه الأقربين ، فأعلن عن ترشيح نفسه للمجلس التشريعى بالولاية فى منشور أوضح فيه سياسته التى كانت تنادى بالإصلاح الداخلى و المساعدة على الارتقاء بالتعليم ومحاربة الربا ، وجاء فى آخر فقرات ذلك المنشور : « إن لكل إنسان أمانيه الخاصة ، وسواء أصح هذا أم لم يصح فأنا أستطيع أن أقول إن أعظم ما أتمناه هو أن أنال احترام مواطنى الصادق بأن أكون حقاً جديراً باحترامهم . إلى أى حد أستطيع أن أحقق تلك الأمنية ؟ هذا أمر لم يظهر بعد ، فأنا لم أزل شاباً مجهولا لدى الكثير منكم ، وقد ولدت فى أكثر دروب الحياة تواضعاً ، ولم أزل كذلك ، وليس لى أقارب أغنياء أو مشهورون يزكوننى . وقضيتى لا تستند إلا على الناخبين المستقلين فى هذا البلد ، فإذا انتخبونى فإنهم سيسبغون على فضلا لن أهدأ حتى أرده إليهم ، أما إذا رأى أفاضل القوم بثاقب رأيهم أننى يجب أن أظل فى المؤخرة فإنى أعلن أننى قد ألفت خيبة الآمال بحيث لن يؤلمنى ذلك كثيراً » .

لقد كان أهم مايشغل بال أهل القرية هو الملاحة فى نهرهم ، فإذا تيسر للمراكب الكبيرة استخدام نهر سانجامون فإن القرويين يستطيعون أن يحصلوا على البضائع بأثمان أرخص . وقد تواترت الأنباء عن الباخرة « الطلسم » التى كانت على أهبة الاستعداد « لنقل البضائع من سانت لويس على نهر سانجامون فى مواجهة مدينة سبرنجفيلد مقابل ٣٧½ سنت لكل مائة رطل » ، وهى قيمة تقل عن نصف القيمة التى كانت تدفع لوسائل النقل البرى . واستأجر قائد السفينة بعض الحمال وأعطاهم فئوساً طويلة يقطعون به

بها الأغصان المتدلية ، ويزيلون العوائق التي كانت تغير من مجرى النهر. وكان لنكولن من بين مَنْ استأجرهم لهذا الغرض .

وعندما بدأت السفينة رحلة العودة ، وكان لنكولن يعمل عليها ضمن البحارة ، كان مجرى النهر ضحلا ، وكان من الصعب عليها أن تتابع رحلتها . ولهذا أجبروا على هدم السد المقام عند نيوسالم حتى تستمر فى السير .

ولم يكن الحديث قد انقضى على حادث السفينة عند ماروع نيوسالم نبأ عبور « الصقر الأسود » . وهو زعيم هندى ، حدود إلينوى مرة ثانية ، ناشراً الذعر على طول الحدود . وقد لبى لنكولن دعوة الحاكم الذى طلب ألف فارس لملاقاة الصقر ، واختاره زملاؤه قائداً لهم . ولم يكن الكابتن لنكولن يعرف شيئاً من أمور الحرب . وقد حدث مرة عند وصول رجاله إلى بوابة ضيقة أنه لم يستطع تذكر الأمر الذى يجب أن يقال فى مثل هذه الحالة فقال لفرقته : قفوا . لنفترق مدة دقيقتين على أن نلتقى مرة أخرى فى الجانب الآخر من البوابة » .

وانتهت مهمته العسكرية التى استمرت ثلاثين يوماً . ولكنه تطوع مرة ثانية وقضى ثلاثة أشهر فى الحرب ، وتقاضى عن خدماته مبلغ ١٢٥ دولارا. على أنه لم ير معركة حقيقية ، ولم يشترك فى حرب فعلية ، ولكنه صادق الكثيرين ، وتعلم قصصاً جديدة ، ورأى أرضاً أخرى . ولما عاد إلى نيوسالم ، استأنف حملته الانتخابية . وفى پاپسفيل ألقى خطاباً فى جمع من الناس ، وكان منظره غريباً وهو يرتدى سروالا قصيراً من الكتان ، وقميصاً من البفتة ، وجورباً أزرق من الصوف المغزول ، وقبعة من القش ، وعندما نشبت معركة بين المستمعين ترك منصة الخطابة وأمسك بالرجل الذى بدأ المعركة من عنقه وجره من سرواله وألقاه بعيداً عن المنصة اثنتى عشرة قدما . ثم عاود خطابه قائلا : « إن سياستى قصيرة وعذبة كرقصة العجوز تماماً ، فأنا أحبذ قيام بنك أهلى ، وأحبذ إنشاء جهاز للإصلاح الداخلى ، وأحبذ فرض

تعريفة جمركية مرتفعة تحمى المنتجين . هذه هى أفكارى ومبادئى السياسية ، فإذا انتخبتمونى فسأكون شاكراً لكم ، وإذا لم تنتخبونى فلن أكون ساخطا » .

لقد سقط فى المعركة الانتخابية ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة ، على حد قوله « التى هزم فيها فى معركة انتخابية » : ومما زاد الأمر سوءاً أن أوقت أغلق متجره ، ووجد لنكولن نفسه بلا عمل . لقد « فكر فى أن يتعلم الحدادة ، وفكر فى أن يحاول دراسة القانون ، أو على الأصح فكر فى أنه لا يمكنه النجاح فى دراسة القانون إذا لم يتقدم فى تعليمه » .

واشترى بالاشتراك مع أحد الشبان كمية من البضائع بمبلغ ضئيل من المال ، دفع جزءاً مقدماً ، والباقى نسيئة ، وهكذا ظهر محل تجارة « بيرى ولنكولن » إلى حيز الوجود . غير أن حلمهما لم يدم طويلا ، فقد غرق الشريكان فى الديون ، وازداد غرقهما يوماً بعد يوم ، وعندما أفلس متجرهما كان لنكولن وحده مديناً بألف ومائة دولار ، فساعده بعض الأصدقاء فى أن يصبح ناظراً لمكتب البريد فى نيوسالم ، وكانت الوظيفة تافهة بحيث لم تحل سياسته دون توليته إياها ، وقد استمر يعمل فى تلك الوظيفة ثلاث سنوات ، وكان متوسط مايكسبه من ذلك العمل دولاراً فى الأسبوع ، وكانت وظيفته أن يقدر عدد الصفحات فى الخطابات — ذلك أن الظروف وطوابع البريد لم تكن قد استعملت بعد — ثم يحسب عدد الأميال التى سيقطعها الخطاب ويكتب القيمة فى الركن . على أنه لم يمارس عمله بكفاءة ، ويظهر ذلك من خطاب أرسله قروى إلى شقيقه يذكر فيه أن « ناظر مكتب البريد مهمل غاية الإهمال ، فهو يترك مكتبه فى أثناء النهار مفتوحاً غير مغلق ، وكثيراً ما ذهبت إلى المكتب وأخذت أوراقى وما إلى ذلك دون أن أجد أحداً هناك ... » . وكى يزيد من دخله المتواضع ساعد فى شق القضبان ، والعمل بالطاحونة ، وساعد الفلاحين فى أوقات الحصاد ، كما ساعد « سام هيل » فى تنظيم

محل تجارته ، ولم يرفض أى عمل اتفق له . وعندما قرر مسّاح القرية أن يعينه مساعداً له ، انكب على دراسة كتاب فلنت « مقالة فى الهندسة وحساب المثلثات والمساحة » ، واشترى كذلك بوصلة وسلسلة وحصانا وسرجا على الحساب.

وكان يتقاضى دولارين ونصف دولار تقريباً على مسح قطـــاع من الأرض ، ودولاراً تقريباً فى اليوم إذا سافر فى أثناء العمل . ولقد كان ذلك على حد ما جاء فى مذكراته « يمسك الرمق ويحفظ الروح فى البدن » .

وتقاضى على بعض أعماله المساحية الأولى قطعتين من جلد الغزال رقعت بها « حنة أرمسترونج » زوجة جاك سرواله حتى لا تمزقه الأشواك .

ثم عاود الكرة فى ربيع عام ١٨٣٤ وتقدم للمجلس التشريعى . وقد انتخب فى هذه المرة ، وفى أثناء حملته الانتخابية شجعه الميجور « جون تود ستيوارت » ـ وكان أحد زعماء الأحرار ـ على أن يصبح محامياً . واستعار لنكولن بعض الكتب من ستيوارت وأقبل على دراستها باهتمام . وكان يستذكر وحده ، واحتفظ بعمله مساحاً فى نفس الوقت حتى يتمكن من سد نفقات مسكنه وملبسه . .

وفى خريف ذلك العام استطاع ذلك المشرّع ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، أن يشترى لنفسه حلة جديدة ليظهر بها فى « فانداليا » عاصمة « إلينوى » .

وبعد انقضاء خمسة أيام على افتتاح المجلس ألقى خطابا اقترح فيه « وضع قانون للحد من سلطة قضاء النواحى . » ثم تقدم ببعض مشاريع أخرى كالمشروع الذى تقدم به لبناء جسر على خليج « سولت » وتحصيل تكاليفه بفرض ضريبة على المارة وإنشاء طريق من سبرنجفيلد إلى مرفأ « ميلر » .

وفى تلك الدورة ، ناقش المجلس أمرين هامين ، هما شق قناة متشجان وإلينوى ، ولائحة بنك الدولة . وقد تمت الموافقة على الاقتراحين ، وكان صوت لنكولن ضمن أصوات الأغلبية ، وتعلم لنكولن فن السياسة فى

ڤاندالیا ، فكان يشاهد ويراقب بعينين وأذنين مفتوحتين ، وأصبح صديقاً للكثيرين ، وتعلم الكثير عن الناس ، وكان يذهب فى كل مرة يأخذ فيها المجلس عطلة إلى نيوسالم ويعود إلى مزاولة عمله كناظر لمكتب البريد ، مستمراً فى عمله كمساح إلى جانب دراسة القانون .

وانتخب عام ١٨٣٦ واحداً من الأحرار التسعة من مقاطعة سانجامون ، وكانوا جميعهم طوالا حتى كانوا يعرفون بالتسعة الطوال ، كما حصل على إجازة المحاماة ، وفى ٩ سبتمبر عام ١٨٣٦ مُنح ترخيصاً بمزاولة المحاماة .

وكانت الجمعية العمومية العاشرة لولاية إلينوى التى انعقدت فى ديسمبر عام ١٨٣٦ أهم جمعية فى تاريخ الولاية ، إذ وافقت على عدد لا مثيل له من مشروعات القوانين ، وأدخلت بما استنته من تشريعات ، نظاماً ضخماً من الإصلاحات الداخلية . وقد ساهم لنكولن مساهمة فعالة فى المناقشات التى أثيرت وأصبح برلمانياً بارعاً ، وأظهر مهارة فى الأخذ والعطاء ، وطموحاً شديداً إلى أن يقوم فى إلينوى بدور « دويت كلنتون »[1]

ولما كانت «ڤاندالیا» فى القطاع الجنوبى للولاية ، وحركة السكان متجهة نحو الشمال ، فقد أوصى لنكولن وبعض أصدقائه من «سانجامون» بأن يكون مقر العاصمة فى سبرنجفيلد . وكان التسعة الطوال بزعامة لنكولن « يدخلون كتلة موافقين أو معارضين فى كل قرار ذى أهمية محلية ، ولكنهم لا يفعلون ذلك إلا فى مقابل أصوات لتأييد اقتراحهم بنقل عاصمة الولاية » .

ولقد أظهرت ميزانية إلينوى زيادة مقدارها مليونان وثلاثة أرباع المليون من الدولارات خصصت للسكك الحديدية والقنوات والأنفاق وما إليها . ولما كان جميع أعضاء المجلس التشريعى حريصين على توجيه بعض المخصصات إلى دوائرهم ، فقد كان موقف التسعة الطوال فى معركتهم من

---

(١) دويت كلنتون (١٧٦٩ — ١٨٢٨) سياسى أمريكى ، دعا بحرارة إلى شق القنوات الملاحية التى جلبت الرخاء لمنطقة نيو إنجلند . (المراجع)

أجل أن تكون « سبرنجفيلد » مقر العاصمة مرفقاً قريباً . وساوم لنكولن بأصواتهم التسعة بمهارة وحذق ؛ ونظير وعده بتأييد شق قناة هنا أو طريق هناك ، حصل على تأكيدات بإعادة النظر فى موقع العاصمة .

وكانت هذه هى الدورة التى أعلن فيها لنكولن وزميله « دان ستون » أن نظام الرق « قائم على الظلم وسوء السياسة معاً ، وأنه «ليس للكونجرس الأمريكى أية سلطة بمقتضى الدستور للتدخل فى نظام الرق فى الولايات المختلفة » .

وقد أكد بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً عندما كان يخوض معركة الرياسة أن موقفه من قضية الرق « لم يختلف فى شىء عن موقفه آنذاك » .

ولكى نزن قيمة السنين التى قضاها لنكولن فى «ڤانداليا» لانجد خيراً من أن نورد كلمات الأستاذ بارنجر : « لقد تعلم ومارس فى قرية «ڤانداليا» الموحلة أسرار مهنته من الأمثلة التى كان يضربها أمامه سياسيون محنكون . هنا ولأول مرة فى حياته اختلط بمجتمع مهذب من نساء ورجال ذوى ميسرة وثقافة وعلم ، هنا ناقش واستمع إلى مناقشات فى كل مظهر من مظاهر السياسة القومية وسياسة الولاية وعلم الاقتصاد ، واختبر مشاكل الرق وإلغائه ، وأعمال المصارف ، وحقوق الولايات ، والسلطة التنفيذية ، والإشراف والتسامح ، والإصلاح الداخلى ، والأراضى العامة ، والرسوم الجمركية ، وعقوبة الإعدام ، والإجراءات القضائية ، والذعر المالى . ولقد كانت الفترة التى قضاها فى ڤانداليا وما أحدثته من آثار فى تكوين شخصيته ، ذات أهمية كبرى فى سيرته الرائعة . »

٣ — حبه :

كان لنكولن يخجل من النساء . وكان يرتاح إلى صحبة الرجال أكثر من صحبتهن ، ومع ذلك كان يرى فى النساء سحراً كبيراً .

وإن قصة حبه لآن روتلدج جزء من الفولكلور الأمريكى . وقد ألقى « بيلى هرندون » محاضرة زعم فيها أن لنكولن « أحب آن روتلدج أكثر مما أحب حياته ذاتها » وأنه أحبها من صميم روحه وعقله وقوته ، وعندما توفيت آن روتلدج وهى فى الثالثة والعشرين ، لم ينم ولم يأكل ولم يشعر بفرح ، بل هام عقله بعيداً عن عرشه شارداً فى الفضاء الرحب يعانق الرؤى والأوهام التى صنعها مخه المحموم .

ولكن « هرندون » أقام ادعاءاته تلك على أوهى الأدلة ، وعلى الشائعات والأحاديث وذكريات العجائز . وحينما ألقيت تلك المحاضرة كان لنكولن قد توسد الثرى أكثر من عام ، ولم يكن ليستطيع الاعتراض ، غير أن مارى لنكولن احتجت على ذلك بشدة قائلة : « سأظل واثقة تمام الثقة من أن آن روتلدج لم تكن سوى خرافة ، وأن زوجها لا يمكن أن يكون قد أحب آن لأنه كان الصدق مجسماً وقد كان يؤكد لى دائماً أنه لم يحب سواى » وفى أثناء حياتهما الزوجية التى استمرت اثنين وعشرين عاماً لم تسمعه مرة واحدة يذكر اسم آن روتلدج ، ولم ينطق اسم هذه الحبيبة مرة واحدة فى أحاديثنا الخاصة . ولا يمكن أن تؤدى حياته أو ضحكته الرنانة إلى أن يفترض إنسان أن قلبه كان معلقاً بقبر امرأة تعسة ، لكنه كان فى مكانه الطبيعى من حيث الوفاء لزوجته الحبيبة وأولاده .

ومع هذا ، فإن قصة « هرندون » العاطفية قد استهوت خيال الناس . لقد أصبحت « آن روتلدج » المحبوبة الإمبراطورية لأبراهام لنكولن فى أذهان

الناس جميعاً . . . إن اسمها معروف لكل إنسان ، ولكن منْ الذى يعرف اسم مارى أوينز؟ مَنْ الذى يعرف اسم الفتاة الذى صادقها لنكولن وطلب يدها بعد وفاة آن روتلدج بعام واحد ؟

لقد كان لمارى أوينز وهى تكبر لنكولن بعام واحد، « بشرة بيضاء وعينان عميقتا الزرقة وشعر مجعد داكن ، وكان طولها خمس أقدام وخمس بوصات ، ووزنها يقرب من مائة وخمسين رطلا » .

التقت مارى أوينز بلنكولن فى نيوسالم حيث كانت فى زيارة لشقيقتها المتزوجة هناك ، ويبدو أنهما تعلقا كل منهما بصاحبه ، فقد اشتركا فى « حلقات التنجيد » [1] وفى رحلات النزهة ، وعندما غادر لنكولن نيوسالم إلى المجلس التشريعى أرسل إليها خطاباً من ڤانداليا يقول فيه : « أرجو الرد بمجرد وصول خطابى هذا ، وأرجو إن أمكن أن تذكرى شيئاً يسعدنى ، لأنى لم أستشعر السعادة الحقيقية منذ فارقتك » .

ولدينا خطاب آخر أرسل بعد هذا الخطاب بعام واحد ، عندما ذهب ليقيم فى سپرنجفيلد : « إننى دائم الفكر فيما قلناه عن مجيئك إلى سپرنجفيلد ، والحق أننى أخشى ألا ترتاحى ، فإن هنا كثيراً من الناس الذين يتجولون بعرباتهم ليظهروا ثراءهم ، وسوف يسوءك أن ترى ذلك دون أن تشاركى فيه . عليك إذن أن تكونى فقيرة دون أن تكون لديك الوسيلة لإخفاء فقرك . هل تعتقدين أنك تستطيعين تحمل ذلك فى صبر ؟ أيما امرأة تشاركنى مصيرى — إن كان هناك على الإطلاق واحدة تفعل ذلك — فسأعمل جاهداً على أن أجعلها سعيدة وراضية ، وليس هناك شىء أستطيع تصوره يمكن أن يزيد تعاستى أكثر من إخفاقى فى ذلك المسعى . وأنا أعلم أننى

---

(١) « حلقات التنجيد » quilting Bees ؛ فى الولايات المتحدة الأمريكية اجتماعات للفتيات قد يشترك فيها بعض الشباب ، يتعاونون فى تنجيد الملاحف ، وكانت نوعاً من المناسبات الاجتماعية التى يشيع فيها المرح .

سأكون معك أكثر سعادة مما أنا عليه الآن ، هذا بالطبع ما لم ألمح عليك أمارات الضجر . ولعل ما قلته لى كان على سبيل المزاح ، أو لعلى لم أفهمه ، فإن كان كذلك وجب أن ننساه ، وإن لم يكن فإنى أرغب صادقاً فى أن تفكرى جدياً قبل أن تقررى رأيك ، وسألتزم بكل تأكيد بما قلته ، هذا بالطبع إن كنت راغبة فيه ، على أنى أعتقد شخصياً أنه يحسن بك ألا تفعلى ذلك ، لأنك لم تعتادى قسوة الحياة ، وربما يكون ذلك أقسى مما تتخيلين الآن. وإنى لأعلم أنك قادرة على التفكير السليم فى أى موضوع ، وإذا ما فكرت فى هذا ملياً قبل أن تصدرى حكمك فسأكون على استعداد للنزول على قرارك . »

ولم تشأ مارى أوينز أن تصبح زوجته ، وكان ثمة ما دعاها إلى ذلك .. فقد حدث مرة بينما كانا يركبان الخيل مع مجموعة من الأصدقاء أن وصلت الجماعة إلى مجرى يصعب عبوره ، وساعد جميع الرجال من اصطحبوه من النساء على العبور فى سلام ، جميعهم ما عدا لنكولن ، الذى عبر الجدول ولم يهتم إطلاقاً حتى بمجرد النظر خلفه . وقد أنبّته مارى بقولها : « أظنك لاتهتم إن دُقّ عنقى أو لم يدق . » وأجابها بأن لديها من الذكاء ما يمكنها من أن تعنى بأمر نفسها .

وكانت هناك حوادث أخرى مشابهة ، كما حدث عندما كانت صديقة لهما تحمل طفلها وهى تصعد أحد التلال ، لاهثة من الإعياء ، والعرق يتصبب منها ، ولكنه مع هذا لم يمد إليها يده . ولربما قالت مارى فى نفسها : « هل سيلازمه ذلك المسلك حيالها بعد أن تتزوجه ؟ هل سيمضى سائراً فى طريقه ويلقى بالعبء عليها ؟ »

وذات مرة سافر لنكولن إلى نيوسالم ليراها ، وفى نفس اليوم الذى عاد فيه إلى سبرنجفيلد أرسل إليها هذا الخطاب : « لا أشك فى أنك ستبدين الدهشة من أن أكتب إليك فى نفس اليوم الذى افترقنا فيه ، ولا أستطيع

تفسير ذلك إلا بافتراض أن رؤيتي لك في الفترة الأخيرة تجعلني أفكر فيك أكثر من المعتاد. » ثم أضاف مؤكداً : « إنني أرغب في هذه اللحظة بالذات أكثر من أي شيء آخر أن أكون منصفاً في موقفي منك ، وإذا كنت أعلم أن الصواب هو أن أتركك — وهذا ما يخيل إليّ أنه سيحدث — فسأفعل ذلك .. »

لقد ساورته الشكوك وملأت عليه رحاب عقله . كان مغرماً بماري ، وكان يرغب في الزواج منها ، ولكنه مع ذلك تردد . وقد جاء في خطابه ذاك :
« إذا كنت تشعرين أنك مرتبطة بي بأي شكل كان ، فأنا الآن على استعداد لأن أخليك من هذه الرابطة ، هذا بالطبع إن كنت ترغبين في ذلك ! وإن كنت أنا من الناحية الأخرى مستعداً بل تواقاً لأن أزداد ارتباطاً إذا استطعت أن أقتنع بأن ذلك سيضيف إلى سعادتك حقاً . »

ولكن ماري أوينز لم تكن لديها رغبة في أن تصبح زوجة لنكولن ، وعندما سئلت عن أسباب رفضها ، وكان ذلك بعد مضي ثلاثين عاماً ، أجابت : « لقد كان مستر لنكولن عاجزاً عن ربط تلك الحلقات الصغيرة التي تكون سلسلة سعادة المرأة — على الأقل كان ذلك هو الحال معي . »

وماذا عن لنكولن ذاته ؟ لقد أفضى بمكنون نفسه إلى صديق له بعد أن رفضته ماري ، وحاول أن « يعطي صورة كاملة وواضحة عما فعله وعما قاساه » . لقد ذكر في خطابه إلى مستر براونتج — وقد خلا ذلك الخطاب من الشهامة بشكل يثير الدهشة — أن ماري أوينز « كانت بدينة .. ويصح أن تكون زوجة لفلستاف[1] .. إنني عندما أفكر فيها لا أستطيع مطلقاً إلا أن أذكر أمي ، وليس هذا بسبب تجعد البشرة ، فإن جسمها كان مملوءاً بالشحم الذي يمنعه من التجعيد ، ولكن بسبب فقد أسنانها ومظهرها البالي على العموم . » أي وصف لامرأة كان يرغب منذ أشهر قليلة في أن يتخذها زوجة له !

(١) فلستاف : إحدى شخصيات شكسبير ، كذاب سكير جبان فياش ، إلا أنه مليء بالدعابة . (المراجع) .

واعترف لنكولن فى خطابه أنه عرض عليها الزواج ، ولكننى صعقت عندما أجابت بالرفض ، . ثم كرر عليها العرض المرة تلو المرة ، ولكنها كانت ترفض عرضه فى كل مرة . وعندما أيقن أن الرفض كان نهائياً ، اشتد بى الغيظ لمائة سبب كما خيل إلى . لقد جرحت كبريائى جرحاً بليغاً من التفكير فى أننى كنت غاية فى الغباء حتى إنى لم أكتشف نواياها ، وكنت فى نفس الوقت لا أشك مطلقاً فى أنى أفهم نواياها جيداً ، وأنها ترفضنى حقيقة على الرغم من كل عظمتى التى تخيلتها ، وهى التى أقنعت نفسى أن أحداً آخر لا يمكن أن يرغب فيها . وزاد الطين بلة أنى بدأت لأول مرة أشك فى أنى كنت حقيقة أحبها . ولكن لندع هذا كله ، وسأحاول أن أنسى ذلك . لقد خدعت الفتيات كثيرين غيرى ، ولكن هذا لا يمكن أن ينطبق بصدق على حالتى . لقد خدعت نفسى بكل تأكيد فى هذه التجربة . ولقد وصلت الآن إلى نتيجة مؤداها ألا أفكر ثانية فى الزواج ، وذلك للسبب الآتى : إننى لا يمكن أن أرضى بأية امرأة غبية تقبلنى زوجاً » .

ولعل العذر الوحيد لهذا الخطاب هو أنه مؤرخ فى أول إبريل عام ١٨٣٨ ، وربما كانت كذبة أبريل !!

٤ — المشرع :

فى منتصف مارس عام ١٨٣٧ بدأت عطلة المجلس التشريعى ، وعاد لنكولن إلى نيوسالم . ولكن أيام القرية كانت معدودة . لقد بدأ المستوطنون يغادرونها الواحد تلو الآخر . وكان مكتب البريد قد نقل منذ حين إلى بطرسبرج ، ولم يبق سوى وقت قليل تصبح بعده نيوسالم قرية مهجورة .

وكان لنكولن أيضاً على استعداد أن يولى ظهره للمكان الذى عاش فيه قرابة ست سنوات ، والذى تحول فيه من شاب خشن إلى سياسى مكتمل. وفى ١٥ أبريل ، غادر نيوسالم وارتحل إلى سبرنجفيلد ، واضعاً على سرجه كل ما كان يملك من متاع . لقد كان عمره إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً ، وكان ماتبقى له من رصيد العمر ثمانية وعشرين عاماً باليوم الواحد .

وكان أول مايحتاج إليه هو « السرير » . وعلى هذا فقد ذهب إلى متجر «جوشوا سبيد» لشرائه . ولكن عندما ذكر الرجل أن ثمن السرير سبعة عشر دولاراً اكفهر وجه لنكولن وقال :ربما كان السرير رخيصا فعلا ، ولكنى أحب أن أقول إننى مع رخصه هذا لا أملك المال الذى أدفعه ثمناً له ... ولكنك إن بعته لى على الحساب حتى عيد الميلاد ونجحت فى مزاولة المحاماة هنا فسأدفع لك ثمنه فى ذلك الوقت ، أما إن فشلت فقد لا أدفع لك الثمن أبداً . »

لقد استشعر « سبيد » شيئاً من الرثاء لذلك المحامى الشاب ، واقترح على لنكولن أنه « لما كان ذلك الدين على ضآلته يزعجك هكذا ، فأعتقد أننى أستطيع أن أقترح عليك خطة تمكنك من تحقيق غرضك دون اللجوء إلى الاستدانة . لدى حجرة كبيرة جداً ، فيها سرير كبير جداً لشخصين ، وأنا أرحب ترحيباً كاملا بأن تشاركنى فيه إذا رأيت ذلك » . « وهنا صعد لنكولن وكأنه فى سباق ، وعاين الحجرة ، » وعندما نزل قال ووجهه يفيض بشراً وسروراً : « حسنا ياسبيد ، لقد نقلت متاعى ! . »

وأحس بالغربة فى المدينة الجديدة ، فى بادىء الأمر . وكتب إلى ماري أوينز يبثها شكواه قائلا : إنى لم أحس بالوحشة قط كما أحسها هنا . » ولكنه لم يلبث أن انهمك فى قضاياه كشريك مساعد لجون تود ستيوارت ، كما انشغل بالشئون السياسية . وقد أرسل خطاباً مجرداً من الإمضاء إلى جريدة « سانجامون جورنال » يهاجم فيه الجنرال جيمس آدامز، المرشح الديمقراطى لوظيفة قاضى التصرفات ويتهمه بعدم النزاهة والتزوير ، وقد أوضح الخطاب شخصية لنكولن كما كانت عليه فى ذلك الوقت : سياسى خشن يتسم بأخلاق ملائمة لتلك الخشونة ، ولو كان آدامز حقيقة مزوراً وغير نزيه كان المكان الذى يجب أن يحاكم فيه هو ساحة المحاكم لا أعمدة الصحف .

وازدهرت أعمال لنكولن فى المحاماة ، وكذلك نجح فى عمله السياسى ، فقد أعيد فى عام ١٨٣٨ للمجلس التشريعى ، وفى صيف عام ١٨٣٩ أصبح وكيلا عن سبرنجفيلد وتم انتخابه لرابع مرة عام ١٨٤٠ للمجلس التشريعى . وفى تلك السنة أصبح من ناخبى الرياسة فى مؤتمر الأحرار الأول الذى اختار الجنرال وليم هنرى هاريسون .

ولرب سائل يسأل: لماذا انضم لنكولن ، وهو أحد رجال المنزلة المتواضعة، إلى حزب الأحرار، وهو حزب الأغنياء، حزب رجال المال والأعمال؟ ولماذا لم يقف وراء « أندرو جاكسون» الذى حارب من أجل مزيد من الديمقراطية ومن أجل إصلاح الحال بالنسبة للرجل العادى ؟ لقد كان لنكولن يحترم التقاليد ، وكان يؤمن بالنظام الاقتصادى السائد فى البلاد . فليدع جاكسون إذن يهاجم البنوك والاحتكارات ، لقد كان مثله الأعلى لرجل السياسة يتمثل فى شخص « هنرى كلاى » ، فقد كان معجباً بسياسة كلاى وبطريقته الأمريكية التى كانت تنادى بفرض ضرائب جمركية تحمى الصناعات الناشئة ، والتى كانت تؤيد تطوير موارد البلاد ، وتدعو إلى الإصلاحات الداخلية ، وتطالب بتثبيت العملة . ولو أن القدر اختطف لنكولن فى أوائل

العقد الخامس من القرن التاسع عشر لما عرف أحد عنه شيئاً فى أيامنا هذه ؛ إذ كان آنذاك سياسياً مغموراً يقدم مشاريع قوانين أغلبها لمنفعة ناخبيه الشخصية .

لقد علمته الدورات الأربع التى أمضاها فى المجلس التشريعى الشىء الكثير . فقد تعلم فيها كيف يجادل وكيف يساوم ، ومتى يتشدد ومتى يلين ، واتسع أفقه فى تلك السنين ، وأصبح يدرى أن السياسة فن الأخذ والعطاء ، وتعلم كذلك كيف يعرف الناس وكيف يتفهم مشكلاتهم وكانت عظمته التى ظهرت فيما بعد مرتكزة على هذا الأساس .

٥ — مارى تود:

لم تكن مارى تود على شاكلة الفتيات اللاتى عرفهن قبلها . كانت ممتلئة حيوية ، شديدة الحماسة ، جذابة ، وتنحدر من عائلة ثرية نالت قسطا طيبا من التعليم ، تتكلم الفرنسية بطلاقة ، وتعرف الشيء الكثير عن الأدب والموسيقى . لقد كانت شقيقة مسز نينيان إدواردز زوجة ابن الحاكم ، وكانت مارى قد ذهبت إلى سبرنجفيلد تبحث عن زوج .

التقيا أول ما التقيا فى شتاء عام ١٨٣٩ ، فى حفل راقص أقيم بمناسبة نقل عاصمة إلينوى من فانداليا إلى سبرنجفيلد . وحين وقفت فى صالة الرقص وهى مرتدية ثوباً حريريا يكشف عن رقبتها وذراعيها تقدم إليها لنكولن وقال : « أريد أن أرقص معك يامس تود أسوأ رقص ممكن . » والحق أن رقصه كان أسوأ ما يمكن كما تذكرت مارى فيما بعد . ومنذ تلك الليلة صارا رفيقين متلازمين ، فقد كانا يقرآن الكتب والشعر معاً ، كما كانا يتناقشان فى السياسة معا . وقد ذكرت شقيقة مارى التى كانا يلتقيان فى منزلها أن مارى هى التى كانت توجه الحديث فى أغلب الحالات ، « وكان مستر لنكولن يجلس إلى جوارها وينصت ، ومن النادر أن ينطق بكلمة ، ولكنه يحدق فيها مشدوها كما لو كانت هناك قوة علوية غير مرئية لا تمكن مقاومتها تجذبه إليها . »

وسجلت إحدى بنات خالتها : « كانت مارى مبهورة بشخصية مستر لنكولن منذ التقت به أول مرة ، كما كان هو مبهوراً برقتها وذكائها . وقد وجد كل منهما فى الآخر تلك الجدة التى يكلف بها العشاق . رأى فيها فكاهة حاضرة وحباً للحياة وإقبالا عليها ، أما هى فقد أخذت بإخلاصه وأمانته وخلو شخصيته من الملق الناعم والشهامة التقليدية اللذين يتصف بهما الرجال فى مجتمعها . لم يكن قد قابل امرأة كمارى تود ، لطيفة قديرة على معالجة أى

موقف اجتماعى ، أما هى فقد وجدت لأول مرة شاباً ذا عقلية تسيطر على عقليتها ، ولكنها تتفق مع عقليتها . »

وازدادت مشاعرهما عمقاً خلال أشهر الشتاء ، وبحلول الربيع كانت مارى قدقررت أمرها . فلن تكون زوجة لستيفن ا.د وجلاس ولا جيمس شيلدز — وكانا سياسيين شابين يظهران لها الحب ، ولكن قررت أن تصبح زوجة لأبراهام لنكولن .

وأخذت شقيقاتها بما سمعن منها ، وأمطرنها بوابل من الاعتراضات والنصائح . ذلك لأن لنكولن فى رأيهن لم يكن اختيارا مناسباً ، وكانت مارى أهلا لأشياء أفضل بكثير من أن تصبح زوجته ، ولكن مارى لم تتزحزح عن قرارها .

كان لنكولن هو الذى أصبح قلقاً ، وبدلا من أن يسعد ويبتهج وقع فى إحدى نوباته الكئيبة . وذلك أن التفكير فى مستقبل الارتباط بالزواج منها ملأه بأفكار قاتمة . لقد وجد لنفسه أسباباً مختلفة تفسر مصير زواجهما إلى الفشل ، وعذب نفسه بالأفكار السوداء ، وكتب رسالة إلى مارى يعترف فيها أن حبه لها لم يكن من العمق بحيث يؤهل للزواج بينهما ، ولكنه عندما أطلع زميله فى المسكن على الخطاب نصحه سبيد ألا يرسله، وقال له : إن كانت لديك شجاعة الرجال فاذهب إلى مارى بنفسك وقل لها الحقيقة إذا لم تكن تحبها وبين لها أنك لن تتزوجها ، ولكن يجب أن تسرع فى ذلك . تكلم قليلا واتركها سريعا . »

عمل لنكولن بنصيحة صديقه . فقد ذهب لمقابلة مارى وذكر لها ما استقر عليه رأيه ، وعندما انفجرت الفتاة التعسة باكية أخذها لنكولن بين ذراعيه ، وبدلا من أن يفسخ الخطبة جددها . وقد قال لسبيد فى تلك الليلة : « مادمت قد وعدت فليكن ما يكون . لقد قضى الأمر ويجب أن ألتزم بما قلت . »

تشاجرا ثم تصالحا ، ثم تشاجرا مرة ثانية . وكانت ثوراتها تدفعه أحيانا إلى اليأس والقنوط . وفى عام ١٨٤١ تشاجرا كدأبهما وافترقا للأبد ، فى تلك المرة . وقد نسج وليم هرندون خرافة أن زفافهما كان مقررا فى تلك الليلة إذ كانت الفطائر قد صنعت ، والضيوف قد اجتمعت ، وكان كل شىء معداً للاحتفال باستثناء العريس الذى تخلف عن الحضور . على أن وصف هرندون الذى استقر فى أذهان أجيال من الأمريكيين كان مع إثارته للخيال مجرداً من الحقيقة . لكن ، لماذا قطعا العلاقة بينهما ؟ هذا أمر لا ندريه . وبعد ذلك الحادث بثلاثة أسابيع كتب لنكولن إلى ستيورات شريكه فى المحاماة : « أنا الآن أتعس مخلوق على وجه الأرض . ولو أن ماأحس به وزع على سائر البشر لما كان هناك وجه واحد باسم فى هذه الدنيا . أنا لا أدرى إن كنت سأتغلب على هذا الإحساس يوماً ، وأخشى ألا أتمكن من ذلك . على أنه من المستحيل أن أبقى كما أنا الآن . إن مايبدو أمامى الآن هو أنه لابد من إحدى اثنتين :إما أن أموت أو تتحسن حالى. »

وقال الذين كانوا يرقبونه آنذاك إنه فقد صوابه كالمجانين ، وقد كتب صديقه جيمس كونكلنج عنه قائلا: « لقد سجن نفسه أسبوعا ، ومع أنه عاد إلى الظهور الآن إلا أن مظهره أصبح نحيلا هزيلا ، يبدو كما لو كان قد فقد كل قوة على التحدث فوق مستوى الهمس . إن حالته الراهنة تبعث على الأسى ، أما عن الأمل فى شفائه أخيراً فهذا أمر لا أستطيع الادعاء بأنى أعلمه . ولا أشك فى أن لسان حاله يقول : « إن الحب متعة مؤلمة ، ولكن الحياة بلا حب أكثر إيلاما . »

وبحالته النفسية البائسة تلك توجه إلى الدكتور دريك ، وكان طبيباً مشهوراً فى سنسناتى ، يطلب منه النصيحة وحين عجز الدكتور دريك عن مساعدته يمم لنكولن وجهه شطر الدكتور أنسون هنرى فى سبرنجفيلد الذى وصف له علاج العشاق القديم — تغيير المناظر .

طلب لنكولن من شريكه فى المحاماة ، وكان يعمل إذ ذاك فى الدورة

البرلمانية بالكونجرس ، أن يساعده فى الحصول على وظيفة فى إحدى القنصليات بأمريكا الجنوبية . وحاول ستيوارت ذلك ولكنه لم يوفق . وبدلا من أن يذهب لنكولن إلى بوجوتا ذهب لزيارة صديقه سپيد ، وكانت أسرته تمتلك مزرعة خارج لويزفيل .

وصل إلى فارمنجبون محطم الروح ، تعتريه أفكار سوداء فى الانتحار . لقد كان يحس « أنه لم يفعل شيئاً يمكن أن يذكر أى مخلوق بأنه عاش فعلا فى هذه الدنيا وأن ما كان يرغب أن يعيش من أجله هو أن يربط اسمه بالأحداث التى تمر بعصره وجيله ، ويطبع نفسه عليها حتى يرتبط اسمه بشىء نافع لبنى وطنه . »

وكانت مارى حزينة أيضاً ، وقد كتبت إلى صديقة لها تقول : « بعد رحيل أصدقائى المرحين الذين قابلتهم فى الشتاء الماضى بقيت وحيدة مع أفكارى ، ومع الندم الذى مازال متعلقاً بالماضى ، والذى يستطيع الزمن وحده أن يمحوه ببلسمه الشافى . »

مضت سنة على الفراق ، وقد أصبح سپيد فى نفس الحالة النفسية التى كان يعانى منها صديقه منذ عام مضى . ولما عذبه الشك هجر سپرنجفيلد إلى لويزڤيل وهو لا يدرى إن كان يحب أن يتزوج أولا . وقد استحثه لنكولن على أن يتزوج فانى هننج ، ولما اتخذ سپيد قراره بعد شىء من التردد كتب إليه لنكولن قائلا : « أنا أميل إلى الاعتقاد بأن أعصابك ستخونك من حين لآخر لفترة قصيرة ، ولكن بمجرد أن تتغلب على ذلك ، ستذهب تلك المتاعب إلى غير رجعة ... وإذا انتهيت من الحفل وأنت هادىء أو حتى بهيئة لا تثير الفزع فى أحد المدعوين فقد نجوت دون شك ، وبعد شهرين أو ثلاثة على الأكثر ستكون أسعد إنسان . » وبعد أسبوعين أكد لسپيد مرة ثانية « إن توقعنا للشر وهو صفة تميزنا كاينا لأسوأ أنواع الحماقات . »

لقد نجح زواج سپيد ، وعلى حد قول لنكولن : إن ذلك الزواج « أمدنى

بسرور يزيد على مجموع اللحظات السعيدة التى استمتعت بها منذ ذلك اليوم الحاسم من أول يناير . «ولكن أفكاره كانت ماتزال تدور حول مارى . لم يكن يستطيع أن يخرجها من عقله ، وقد نصحه سپيد إما أن يتخذها زوجة أو ينساها ، وأجاب لنكولن على ذلك بقوله : « قبل التصميم على هذا أو ذاك يجب أولا أن أستعيد ثقتى فى مقدرتى على التمسك بقراراتى التى كنت أفتخر فى يوم من الأيام أنها الشىء الوحيد الذى يكوّن شخصى ، أو لعلها الجوهرة الوحيدة التى كنت أعتز بها ، تلك الجوهرة التى فقدتها . كيف ومتى كان ذلك ؟ أنت تعلم عن ذلك كل شىء . أنا لم أستعدها بعد . وحتى أفعل ذلك لا أستطيع أن ألق بنفسى فى أى أمر على هذا القدر من الأهمية . »

ثم حدث أن التقى بها مرة ثانية . فقد كانت سپرنجفيلد مكاناً صغيراً يصعب فيه تجنب رؤية كل منهما الآخر . بدأ اللقاء خلسة ، ثم بدأ فى إرسال خطابات سياسية سرية بالاشتراك مع چولياچين ، يهاجمان فيها جيمس شيلدز المراقب الديمقراطى للولاية . ولما سأل عن اسم الكاتب المجهول ذكر محرر جريدة سانجامون جورنال اسم لنكولن . وطالب شيلدز برد شرفه ، ورتبت مبارزة لذلك ولم توقف إلا فى آخر لحظة ، وقد خجل لنكولن من ذلك الحادث ، وتعلم منه درساً هو ألا يرسل خطاباً مجهولا مرة أخرى .

وفى خريف عام ١٨٤٢ كتب إلى سپيد مرة ثانية يسأله «سؤالا وقحاً» ذلك أنه كان يود أن يعرف إن كان شعوره وتقديره يؤكدان الآن رضاه عن الزواج . ولا بد أن إجابة سپيد كانت مطمئنة ، لأنه فى باكورة يوم من أيام نوفمبر طرق لنكولن باب جيمس ماثينى وطلب منه أن يكون إشبينه لأنه يزمع الزواج فى ليلته . وبعد بضعة أيام أضاف صاحبنا ألا يضرب عن الزواج الجملة التالية فى أحد خطاباته العملية : « ليس فى الأمر جديد سوى زواجى الذى يبدو بالنسبة لى أمراً فى غاية العجب . »

٦ ـــ المحامى والسياسى :

كان لنكولن شريكا لثلاثة من المحامين : كان شريكا لجون ت . ستيوارت من عام ١٨٧٧ حتى عام ١٨٤١ وستيفن ت . لوجان من عام ١٨٤١ حتى ١٨٤٤ ووليم ه . هرندون بعد ذلك . ولم يكن لأحد من التأثير فى حياته مثل ما كان لهؤلاء الرجال الثلاثة . لقد كان جون تود ستيوارت ، ابن عم مارى تود ، أحد الزعماء الأحرار البارزين فى سبرنجفيلد ، ونائبهم المنتخب فى الكونجرس ، وقد شجع لنكولن على الاشتغال بالمحاماة ، واحتضنه ، وطلب منه أن يكون شريكا ثانياً فى شركته القانونية التى كانت من أكثر الشركات عملا فى سبرنجفيلد .

وعندما افترقا أصبح لنكولن شريكا مساوياً للقاضى ستيفن لوجان الذى كان مرتب الذهن بقدر ما كان مهمل الهندام ، وكان قانونياً صبوراً منظم التفكير ، وقد علم لنكولن الذى كان يصغره بعشرة أعوام أهمية الإعداد الدقيق ، كما علمه الإقلاع عن العادات الفكرية المضطربة .

وعندما انحلت شركة لنكولن مع لوجان يمم وجهه شطر وليم ه . هرندون ، الذى كان عمره إذ ذاك ستة وثلاثين عاما . وقال له : « يمكننى أن أثق فيك يا بيلى إذا أمكنك أن تثق بى . » وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود شركة لنكولن وهرندون .

ولقد كان هرندون على نقيض شريكه الأكبر فى كل شىء فبينما كان هو مندفعاً مضطرباً كان لنكولن حذراً محافظاً . ولم يكن فى هرندون أية دعابة بينما كان لنكولن مليئاً بها . وكان هرندون يحب الشراب بينما كان لنكولن من أنصار الاعتدال . ولكنهما لم يختلفا قط ، ولم يحد وليم عن عهده وميثاقه ، وكان يعتقد أن مستر لنكولن كما كان يسميه دائماً لا يمكن أن يخطىء .

على أن مكتبهما كان غير منظم ، لأن كلا الشريكين لم يكن منظما فقلما نظفت الشبابيك ، وكانت الأوراق تغمر جميع المكاتب ، ولم يكن لهما أى نظام لحفظ الأوراق ، وكان لنكولن يلقى بالخطابات فى قبعته ، كما كان هرندون يأخذ الأوراق والمذكرات إلى منزله . وقد كتب الشريك الأكبر على ظرف كبير ملىء بالأوراق ما يأتى : « عندما لاتجد الورقة التى تبحث عنها فى أى مكان ابحث عنها هنا . »

وكانت محاكم سبرنجفيلد تعقد لبضعة أسابيع فقط كل عام ، وحتى يتمكن المحامون من مساواة دخلهم بمصروفهم كانوا يذهبون إلى الدوائر الأخرى فكان لنكولن يتنقل بين أرجاء الدائرة القضائية الثامنة فى إلينوى ، وهى دائرة كبيرة مساحتها اثنا عشر ألف ميل مربع . وكانت المحاكم تعقد فى القرى ، وبين كل قرية وأخرى مساحة كبيرة خالية ، وكثيراً ما كان القضاة والمحامون يضطرون إلى ركوب الخيل أو العربات المحطمة لمسافة ثلاثين ميلا أو أكثر فى اليوم ، والمطر يغرق أجسامهم ، والهواء البارد ينفذ إلى نخاعهم .

كان لنكولن يهوى القانون ، ولكن ولعه بالسياسة كان أكبر ، فتعلم فى رحلاته تلك كيف يفكر الناس ، وما الذى يفكرون فيه ، ولماذا يفكرون على هذا النحو ؟ ونجح فى اكتساب عواطفهم وتأييدهم . .

لقد اشتعلت جذوة آماله السياسية ، وطمح إلى أن يصبح عضواً فى الكونجرس . فكتب إلى صديق له فى عام ١٨٤٣ : « إذا سمعت إنساناً يقول: إن لنكولن لا يريد أن يدخل الكونجرس فأرجوك كصديق أن تذكر له أن لديك من الدلائل ما يجعلك تعتقد خطأ هذا الزعم . فالحق أنى أرغب جداً فى الذهاب إلى الكونجرس . »

ومع هذا فعندما أصبح على أحرار دائرة الكونجرس السابعة أن يختاروا بين ترشيح لنكولن وهاردن وبيكر ، كان إدوارد ديكنسون بيكر

هو الذى اختاروه . وقد اعتقد لنكولن أنه هزم لأنه اعتبر مرشحاً متكبراً ثرياً أرستقراطياً ، ولأنه لم يكن ينتمى إلى كنيسة معينة ، وكان الناس يشكون فى اعترافه بالنظام الكنسى ، إلى جانب أنه كان يتحدث عن الدخول فى مبارزة . وعندما أرسلوه مندوباً إلى مؤتمر الدائرة ليتقدم بترشيح بيكر ، أحس كأنه يقوم بدور الإشبين لرجل قطع عليه غرضه واختطف عروسه الحبيبة . ومع هذا فلم يؤيد مؤتمر الدائرة ترشيح بيكر ، بل رشح جون هاردن ، فاقترح لنكولن أن يكون بيكر هو مرشح الحزب فى الدورة القادمة بعد عامين . وكانت تلك خطوة تنم عن بعد النظر ، وصارت مبدأ لتتابع المرشحين . لقد أعقب بيكر هادرن ، وعندما عاد بيكر من واشنطون فى صيف عام ١٨٤٥ حصل منه لنكولن على وعد بالتنحى عن الانتخابات القادمة ، وأن يعطيه دوره . لقد كان بيكر على استعداد للتنحى ، ولكن هاردن الذى كان يرغب فى ترشيح نفسه لم يكن مستعدا للتنحى . وقد أرسل إليه لنكولن هذا الخطاب : « إن لم أكن ، نظيراً لك بحيث أستحق الترشيح ، لخدمتى السابقة للحزب ، ومقدرتى على خدمته فى المستقبل — إلى جانب أنك قد أخذت دورك — فإنى أرفض هذا الترشيح مهما تكن الأسباب . »

وقد حصل بجرأته وذكائه على تأييد سياسى كاف ، مما أجبر هاردن على التنحى . وعندما أجبر هاردن على الخروج من السباق كان مرشح المؤتمر هو لنكولن ، وكانت المعركة الانتخابية التى تلت الترشيح عنيفة ، فقد كان منافسه الديمقراطى هو الواعظ المثودست (١) بيتر كارترايت ، ومما يروى عن تلك المعركة أن لنكولن دخل أحد الاجتماعات الدينية التى كان يعقدها كارترايت فى أثناء الحملة الانتخابية ، وبعد إلقاء موعظة رائعة قال : « كل من يرغب فى أن يحيا حياة جديدة وأن يعطى قلبه للرب ويكون مثواه الجنة عليه أن يقف . » فوقف عدد قليل من المصلين ، وبعد ذلك قال كارترايت

(١) المثود ستس فرقة من المذهب البروتستنتى (المراجع) .

فى صوت يهدر كالرعد : « كل من لا يرغب فى الذهاب إلى جهنم فعليه أن يقف . فوقف بقية الرجال والنساء ماعدا لنكولن . وهنا صب عليه كارترايت جام غضبه قائلا : « هل لى أن أسألك يامستر لنكولن إلى أين تذهب ؟ » . . وقد قيل إن لنكولن رد عليه بنبراته البطيئة الممدودة « إذا لم تر بأسا فإنى ذاهب إلى الكونجرس . » وقد أثار الديمقراطيون مزيداً من الجدل حول عدم احترام لنكولن للدين حتى وجد المرشح المتهم نفسه مضطرا للرد على ذلك أمام الرأى العام . . وكتب مايلى فى أحد منشوراته الانتخابية :

« لقد راجت تهمة فى بعض أرجاء هذه الدائرة مؤداها أنى أهزأ بالمسيحية علنا . وصحيح أنى لا أنتمى إلى كنيسة مسيحية معينة ، ولكنى لم أكفر قط بالكتاب المقدس ، ولم يحدث أن تحدثت مرة ممتهناً الدين بوجه عام ، ولا مهاجماً أية فئة مسيحية بوجه خاص . على أنى لا أنكر أنى كنت فى طفولتى أميل إلى الإيمان بما كنت أنهمه على أنه « مبدأ الضرورة » ، وهو أن العقل البشرى مضطر للعمل أو السكون بتأثير قوة ما ليس للعقل ذاته سلطان عليها ، وأنى أحيانا حاولت أن أتمسك بهذه العقيدة عند مجادلة شخص أو شخصين أو ثلاثة أشخاص ، لكن لم يحدث ذلك إطلاقا فى مجتمع عام . ومع هذا فقد تخليت عن هذه العادة فى الجدل حول تلك الفكرة منذ أكثر من خمسة أعوام ، وأضيف هنا أن هذه العقيدة ذاتها تعتنقها طوائف شتى من المسيحيين بحسب ما أعلم . هذه هى الحقيقة كاملة فيما يختص بى عن هذا الموضوع ، أوضحتها فى إيجاز .

ولا أعتقد أنى أستطيع أنا نفسى تزكية مرشح أعلم أنه عدو صريح للدين أو مستخف به . فإذا ماتركنا تلك المسألة العليا ، مسألة الآثار الأبدية الناتجة عن ذلك بينه وبين خالقه ، فإنى مازلت أعتقد أنه ليس لأى شخص الحق فى أن يؤذى مشاعر المجتمع الذى يعيش فيه أو يخدش تقاليده . وإن

كنت قد أذنبت كما يقولون فإنى لا ألوم أى إنسان يدينني لذلك ، ولكني ألوم أولئك الذين يروجون مثل هذه التهم الباطلة ضدى ، أياً من كانوا . »

كان هذا هو الإعلان الوحيد الذى أفصح فيه أبراهام لنكولن عن عقيدته الدينية . وقد كسب المعركة الانتخابية بأغلبية حاسمة ، إذ حصل على ٦٣٤٠ صوتا ضد ٤٨٢٩ صوتاً نالها كارترايت . ورد المائتى دولار التى أعطاها له أصدقاؤه للإنفاق على المعركة الانتخابية ، ماعدا ٧٥ سنتا . وقال : « لقد خضت المعركة الانتخابية على حصانى . . وكانت الاستقبالات تعقد فى منازل أصدقائى ، فلم تكلفنى شيئاً ، وكان كل ما أنفقته هو ٧٥ سنتا ثمن برميل من السيدر صمم بعض العمال الزراعيين على أن اشتريه لهم . »

٧ — عضو الكونجرس :

لم يجتمع الكونجرس الثلاثون حتى آخر شهر فى عام ١٨٤٧ ، وكان ذلك بعد انتخاب لنكولن بعام ونصف عام . وقد أمضى تلك الفترة يتجول فى دائرته القضائية ويمارس المحاماة ، وكان يقبل القضايا التى تعرض عليه ، وقد حضر فى إحدى الجلسات بالنيابة عن أحد ملاك العبيد الذى رفع دعوى ضد عائلة من عبيده كانت قد هربت ، ولم يشعر بشىء من وخز الضمير لمطالبته بإدانة العبيد الهاربين .

وفى أكتوبر أجر منزله لمدة عام ورحل مع مارى وولديها إلى واشنطون ونزلوا بحجر مفروشة فى منزل سبرنجز ، ولكن الحياة فى العاصمة لم تكن على هوى مارى ، فرحلت عائدة إلى سبرنجفيلد مع ولديها بعد ثلاثة أشهر . وعندما وصل لنكولن إلى العاصمة كانت الحرب فى المكسيك قد توقفت ، وكان هنرى كلاى زعيم الأحرار قد قال عند بداية الحرب : « ليست هذه حرباً دفاعية ولكنها حرب عدوانية لا مبرر لها . » ولكن الأحرار سرعان ماأدركوا أن الرأى العام كان يؤيد سياسة الرئيس بولك ، وأن محاولة إلقاء جريرة الحرب على الحكومة لن تكون خطة بارعة .

وكثيراً ما رد الرئيس فى خطبه بأن المكسيك هى التى بدأت الحرب ، ولم تكن الولايات المتحدة هى التى بدأتها . وقد ناقش الأحرار ذلك ، وقدم لنكولن إلى المجلس مشروع قرار من ثمانى نقط سائلا الرئيس إن كانت « البقعة التى أريقت فيها دماء مواطنينا فى أرض تتبع أسبانيا أم لا » وبعد ثلاثة أسابيع أضاف إلى مشروعه أنه يجب على بولك « الرجل الحائر الذى اختلط عليه الأمر » أن يجيب « إجابة كاملة منصفة صادقة عما إذا كانت الأرض أرضنا ، والسكان خاضعين للسلطات المدنية فى تكساس أو الولايات المتحدة » .

لقد بهت الناخبون في دائرة لنكولن ، فهم لم يعطوه أصواتهم ليتبع مثل هذه السياسة ، وقد أمطره أصدقاؤه بوابل من الخطابات راجين منه أن يغير موقفه ، وهاجمته صحف الديمقراطيين بعنف متزايد ، وأسمته صحيفة « ديموكراتك بريس » في مدينة پيوريا « بندكت أرنولد الثاني » (١) ، وأشارت إليه صحيفة « الريچستر » التي تصدر في سپرنجفيلد بلقب «لنكولن المبقع » إشارة إلى مشروع قراره عن « البقعة » ومرض « حمى البقع » (التيفوس) الذي انتشر آنذاك في ميتشجان . فكتبت الصحيفة تقول : « إن هذه الحمى لم تنتشر بشكل مخيف في إلينوى ، والحالة الوحيدة التي سمعنا بها ، ويحتمل أن تكون قاتلة ، هي حالة لنكولن (المبقع) في هذه الولاية . » على أن ناخبيه لم يختلفوا معه في المسائل السياسية الأخرى ، وقد أيد لنكولن « شرط ويلموت » الذي أعلن أنه في جميع البلاد التي أخذت من المكسيك « يجب ألا يكون هناك رق أو سخرة أبداً » ، ولكنه عارض الاضطرابات التي أثارها المطالبون بإلغاء الرق، لأن ذلك في تقديره لم يكن ليؤدي إلا إلى الضرر ، ومع هذا فقد كان موقفه المعارض للحرب سبباً في عدم إعادة ترشيحه ، فلم ينتخب لدورة أخرى .

وقد أيد لنكولن في مؤتمر حزب الأحرار المنعقد عام ١٨٤٨ الجنرال زخارى تايلور للرياسة ، وخاض المعركة الانتخابية إلى جانبه في نيوإنجلند ونجح الجنرال ، وبينما كان يجرى تنصيبه رئيساً كان لنكولن متغيباً في واشنطون ، إذ كان يحاول قضيته الأولى والوحيدة أمام المحكمة العليا ، ويطلب براءة اختراع « لطريقة محسنة لرفع المراكب فوق المياه الضحلة . »

---

(١) بندكت أرنولد (١٧٤١ — ١٨٠١) قائد من قواد ثورة الاستقلال الأمريكية . أظهر بطولة نادرة في السنوات الأولى من الحرب ولكن طموحه الشخصي وحبه الشديد للمال دفعاه إلى طريق الخيانة . (المراجع)

ولما عاد إلى سبرنجفيلد خاض معركة خاسرة من أجل مكسب سياسى وهو أن يصبح مندوبا فى مكتب الأراضى العام .

وبعد ذلك ، فى نفس العام ، رفض سكرتارية ولاية أوريجون ثم رياستها عندما عرضتا عليه . لقد أحس أن حياته السياسية تقترب من نهايتها ، وظن أنه فشل كعضو فى الكونجرس ، ومن ثم انصرف عن السياسية وعاد إلى ممارسة المحاماة .

٨ — الشئون العائلية:

الناس يتذكرون ويتحدثون ويطلقون الشائعات ، وبعض ما يقولونه صحيح ، وبعضه الآخر غير صحيح .

وقد رأى الجيران مارى ذات مرة تطرد زوجها خارج المنزل ، وقد أمسكت بيدها سكينا ، وكان ذلك فى صباح يوم أحد ، وكان الذاهبون إلى الكنيسة يسيرون فى الشارع ، وهم يذكرون أن لنكولن ساقها أمامه إلى المطبخ وهو يصيح قائلا: «اجلسى هنا فى المنزل أيتها اللعينة ولا تلطخى سمعتنا أمام الناس . » ويحكى كذلك أنه جرى وراءها مرة أخرى حول المنزل وهو يصيح : « لقد أحلت المنزل إلى جحيم ، اخرجى لعنة الله عليك ! »

ولكن هل حدث ذلك فعلا ؟ من ذا الذى يستطيع أن يؤكد ذلك ؟ لقد كانا عندما يفترقان ، كما حدث عندما عادت مارى إلى سبرنجفيلد للبقاء بها وأمضى لنكولن دورته فى الكونجرس ، يتبادلان خطابات كتلك الخطابات التى يرسلها العشاق المذلهون ، وعلى هذا النحو أرسل الزوج المغترب فى واشنطون يقول : « فى هذه الحياة المليئة بالمتاعب لا يمكن لنا أن نرضى كل الرضاء . فعندما كنت هنا ظننت أنك تعطليننى بعض الشىء عن الالتفات إلى عملى ، أما الآن وليس حولى سوى العمل دون شىء من التجديد فقد أصبح العمل بالنسبة لى لا طعم له على الإطلاق . . إننى أكره بقائى وحيداً فى هذه الحجرة العتيقة . . . »

وأجابته مارى « إننى أحس بالتعب والضجر لدرجة أعلم معها أن الليلة هى مساء السبت وأن أطفالنا نائمون . . . كم كنت أرغب فى أن أراك إلى جانبى فى هذه الأمسية بدلا من الكتابة إليك . . . إننى حزينة جداً وأنا بعيدة عنك . »

على أن لنكولن لم يكن رجلا سهل العشرة . فقد كانت ماري تحب أن يكون منزلها مرتباً ، ولكن زوجها كان قد تعود الفوضى ، فكان يستعمل المطواة القديمة التي يحتفظ بها في جيبه لقطع الزبد ، ويحب أن يستلقي على الأرض ويقرأ مستندا إلى ظهر كرسي وقد ألقى سترته وحذاءه بعيداً وترك حمالته مدلاة فوق سراويله . وقد قام ليفتح الباب ذات يوم وهو على هذه الحال ، فوجد بعض صديقات ماري ، وثارت ثائرتها لمسلك زوجها هذا .

وحينما كانت ماري تذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد كان لنكولن يرى مرتديا قميصه « يدفع عربة أطفاله الصغيرة جيئة وذهاباً وشمالا وجنوباً على رصيف الشارع الثامن . » وبينما يدفع العربة كان يقرأ في كتاب « مستغرقا حتى إن الطفل الصغير ليقع من العربة ويصرخ ولنكولن سائر في الطريق لا يلوى على شيء . » وكانت ماري تخرج من الكنيسة وترى أطفالها في الشارع فتسلق زوجها بلسان حاد .

وكان لنكولن بعد هذه الخلافات الزوجية غالباً ما يعتكف في مكتبه ، ويبقى هناك متجهم الوجه ، ويمضغ شيئاً من الجبن والسجق والعيش المقدد ، ولا يعود إلى المنزل إلا عند منتصف الليل ، حين تكون ماري قد نامت . ولكن خلافاتهما وثوراتهما كان يغطى عليها موجة دائبة من الحنان والحب. وقد قال جيمس جورلى الذى ظل يسكن بجوارها تسعة عشر عاما : « إن آل لنكولن كانوا جيراناً طيبين . » وهو يذكر أن لنكولن «كان يعتنى بحصانه ويطعمه وينظفه ، وكان يطعم بقرته ويحلبها ، ويقطع أشجاره عادة عندما يكون في المنزل .» وهو يذكر كذلك أنه كان يلعب الكرة مع جاره، وكان « يقفز جيداً ، ويستطيع أن يقطع ٤١ قدما في ثلاث قفزات . »

وهناك قصص كثيرة عن أولاد لنكولن وكيف كان والدهم كلفاً بهم « يفخر بهم ، ويغض الطرف عن أخطائهم . وكان له أربعة أبناء : هم روبرت وإدوارد ووليم وتوماس (مات سنة ١٨٥٠ وهى نفس السنة التى

ولده فيها وليم) . كان يبيح لهم أن يفعلوا مايشاءون ، فكانوا يقلبون البيت رأساً على عقب، حتى كان هرندون، يرغب فى أن يدق أعناقهم الصغيرة، ولكنه كان يسكت لعلمه إلى أى مدى كان شريكه « يعبد أبناءه ويعبد مايعبدونه . كان يحب مايحبونه ويكره ما يكرهونه » . وكان لنكولن صفوحا ، ومع هذا فعندما كان والده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، واقترح عليه أخوه غير الشقيق أن يودعه ، رفض قائلا : « قل له إنه إذا استطعنا أن نلتقى الآن فمن المشكوك فيه أن يكون لقاؤنا ساراً ، بل لعله يكون محزناً . ولكنه إذا غادر الحياة الدنيا الآن فسوف يحظى باجتماع سعيد مع أحباب كثيرين سبقوه . وإن الباقين منا ليأملون برحمة من الله فى أن يلحقوا بهم قبل مضى وقت طويل . »

ولم يكن لنكولن ليصطنع العاطفة حين لا يحس بها .

٩ ــ العودة إلى السياسة :

اعتزل لنكولن السياسة من عام ١٨٤٩ حتى عام ١٨٥٤ مجرباً « نوعا من النظام لا نظير له فرضته عليه الهزيمة . » وعندما انقضت السنون خرج منها أقوى مما كان ، « وقد رسخ فى أعماقه أساس العظمة ، وظهر بجلاء حتى لأعين الأعداء » .

وفى خلال تلك السنين سيطر على الأسلوب الأدبى الدقيق الذى كونه لنفسه . وكان أسلوبه يرتكز على الإنجيل وشكسبير ، ولكنه يلمع بقصص من الأرض التى كان يعرفها جيدا . وفى تلك السنين درس الفلك والرياضة وقرأ إقليدس .

لقد نما فى هذه السنوات الخمس . وكان نمط الحياة لمحام فى الأقاليم لا يتغير . فكان لنكولن يجوب الدائرة الثامنة خلال البرارى التى لم تطأها قدم ، فى هجير الشمس وتحت وابل المطر وقصف الرياح وتساقط الثلوج . وقد أمضى الساعات الطويلة فوق صهوة الجواد ، مما أعطاه فسحة كبيرة من الوقت للتفكير والتأمل .

هل كان محامياً ناجحا ؟ هكذا اعتقد معاصروه . وقد قال عنه أحد زملائه « لقد كانت معرفته بالقانون قائمة كلها تقريبا على دراسته التى لم يساعده فيها أحد ، وعلى ممارسته للمهنة . » وقال آخر « إنه كان دائماً يعالج قضاياه بإنصاف وأمانة ، ولم يحدث قط أن حرف عامدا فى شهادة شاهد أو حجة خصم . . . ولا أساء تأويل القانون ليخضعه لذكائه فى النظر إليـــه . » .

وقد حدث مرة أن كان يدافع عن رجل يطالب آخر ببعض المـال ، وعندما أثبت المدعى عليه أنه دفع المبلغ غادر لنكولن قاعة المحكمة .

وقد أرسل القاضى فى طلبه ، ولكن لنكولن قال للرسول : أخبر القاضى أنى لا أستطيع الحضور ، إن يدى ملوثتان وقد جئت إلى هنا لأنظفهما .

وكان يناصر المحتاج ، فعندما طالب أحد مديرى المعاشات أرملة جندى من جنود الثورة بنصف معاشها رفع لنكولن الدعوى لمصلحة الأرملة ضد المدير ، وكسب القضية ، ولم يرفض تقاضى الأتعاب فحسب ولكنه دفع قائمة حساب الفندق الذى كانت تنزل فيه تلك السيدة .

وكان القاضى والمحامون والزبائن يجلسون بعد عمل اليوم لتناول العشاء الذى يمتد فى بعض الأحيان حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى : وكانت أحاديثهم تجول فى عالم الفكر والتجربة ، ولنكولن دائماً فارس تلك الحلبة ، وكان جسم القاضى دافيد دافيز الممتلىء الذى يزن ثلاثمائة رطل يهتز كله من الضحك عندما يصغى إلى أحاديث لنكولن . وقد ذكر عنه أحد الذين حضروا مجالسه : « إنه كان فى دعابته يبذ جميع الرجال الذين قدر لى أن أقابلهم . »

ولكن إلى جانب هذا كله عرف الأيام السوداء التى كان يجلس فيها ساكناً عازفاً عن الرفاق ، ويذرع الشوارع فى وحدة قاسية « والكآبة تقطر منه » . فلم يكن انتقاله من السعادة الصاخبة إلى الحزن المؤلم يستدعى منه أن يخطو بعيداً .

وعند انتهاء الدورة القضائية كان يعود إلى منزله ومكتبه . وهناك يرى جالسا يكتب أو يقرأ ، وقد مد رجليه على كرسى آخر ، وعندما يحضر أحد يحييه بنكتة أو قصة طريفة . ويذكر أحد الطلاب الذين كانوا يتمرنون فى مكتبه أنه سمعه « يروى نفس القصة ثلاث مرات فى ثلاث ساعات لأشخاص مختلفين ، ويضحك فى كل مـــرة ضحكاً صاخباً كأنها قصة جديدة » .

ولقد كان راضياً عن مهنته ، إذ كان يحصل منها على قوته وقوت عياله

واحتياجاتهم المتزايدة . ولكن فى بداية عام ١٨٥٤ ، عندما قدم ستيفن دوجلاس بوصفه رئيسا للجنة الأراضى بمجلس الشيوخ ، مشروع قانون ينظم أراضى كنساس و نبراسكا حـــدث أن ثار لنكولن « كما لم يثر من قبل » .

لماذا تعجل دوجلاس تقديم مشروعه وأثار بذلك عش السياسة الهادىء ؟ إن هذا أمر مازال يكتنفه الغموض ، على أنه من أرجح الاحتمالات أن يكون لمدخط السكة الحديدية عبر القارة صلة بالموضوع ، ذلك أنه إذا لم تنظم أراضى نبراسكا سريعاً فمعنى هذا أن الخط قد يبنى على طريق من طرق الجنوب ، وكان دوجلاس نائب إلينوى يرغب فى أن يقطع الخط الحديدى الولايات الشمالية فتكون شيكاغو هى نهايته من الشرق .

ولكى يحقق ذلك كان لابد له من تأييد الجنوب ، بأن يجعل مقترحاته مقبولة لدى التفكير السياسى للجنوب ، فشملت هذه المقترحات مبدأ السيادة الشعبية الذى يكون بمقتضاه لأهل المقاطعات الإدارية الجديدة (١) حق تقرير الاعتراف بالرق أو منعه داخل حدودهم .

وأثار اقتراح دوجلاس زوبعة سياسية حامية . فقد تساءل الناس فى الشمال عما إذا كان يجب أن يسمح لأغلبية من المستوطنين فى الأراضى غير الآهلة بالسكان أن يقرروا مثل هذا الأمر الخطير دون الرجوع إلى إرادة الأمة كلها ؟ وهل يجب أن يعطى الحق لسكان الولايات فى التصويت على مسألة الرق ، حتى قبل أن تنضم ولاياتهم إلى الاتحاد ؟ وبعد ثلاثة أشهر من الجدل العنيف والمناقشات الحادة أقر الكونجرس مشروع « كنساس

---

(١) المقاطعات الإدارية Territories فى الولايات المتحدة : أقسام من البلاد لا تدخل فى حدود أية ولاية من الولايات ، ولكن ينظمها تشريع خاص ، ويميزها محافظ وموظفون يعينهم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ومجلس شيوخها (المراجع).

ونبراسكا ، الذى ألغى فى صورته النهائية الحدود الموضوعة فى اتفاقية ميسورى . والآن أصبحت البلاد ، سواء كانت شمال خط ٣٦ر٥ أو جنوبه مفتوحة أمام الرق من الناحية القانونية .

ثارت ثائرة الذين كانوا ينادون بإلغاء الرق ، ولم يعد فى مقدور لنكولن أن يسكت . وفى بطء وهدوء كعادته صمم على أمر . ففى أواسط صيف ١٨٥٤ كان يجوب ولايته داعيـاً لإعادة انتخاب صديقه ريتشارد ييتس للكونجرس ، ومفنداً فى براعة مقترحات دوجلاس ، ومهاجماً توسيع دائرة الأراضى التى تملك العبيد .

وقد تحدث ستيفن دوجلاس إلى ناخبيه بسبرنجفيلد كى يوضح موقفه . وفى اليوم التالى رد عليه لنكولن بإفاضة فى خطاب استغرق ثلاث ساعات كاملة . كان يخطب فى الحر الشديد ، وقد خلع سترته وياقة قميصه . وفى ١٦ أكتوبر ردد حججه فى مدينة بيوريا ، ونشرت الصحف خطابه كاملا . وقد أعلن لنكولن فى خطابه الذى ألقاه فى بيوريا أنه بما أن موضوع الرق قد حسمته اتفاقية ميسورى عام ١٨٢٠ واتفاقية ١٨٥٠ ؛ فليس هناك أسباب وجيهة لإلغاء هاتين الاتفاقيتين ، واعترف للجنوب بحقه الدستورى فى امتلاك الرقيق ، ولكنه أنكر أن يمتد الرق بمقتضى هذا الحق إلى الولايات الجديدة ، وقرر أن السماح بالرق فى كنساس ونبراسكا خطأ .. « خطأ من ناحية المبدأ الذى سيسمح بانتشاره إلى كل مكان آخر من العالم الواسع يميل فيه الناس إلى الأخذ به . » وقال إنه يكره الحماس لانتشار الرق : « إننى أكرهه للظلم الفادح الذى يصاحب الرق ذاته ، وأكرهه لأنه يقضى على تأثير قدوة نظامنا الجمهورى على العالم ، ويمكن أعـداء الأنظمة الحرة — ولهم الحق فى ذلك — من اتهامنا بالنفاق ، ويجعل أصدقاء الحرية الحقيقيين يشكون فى إخلاصنا ، وعلى الأخص لأن الرق يكره كثيرين من الرجال الطيبين بيننا على الدخول فى حرب صريحة ضد

المبادىء الأساسية للحرية المدنية ، فينتقدون إعلان الاستقلال ، ويؤكدون أنه ليس ثمة مبدأ صحيح للعمل غير المنفعة الشخصية . »

وفى نهاية ندائه الحماسى هذا حذر لنكولن دوجلاس بأنه ليس سواء أن يكون بلد جديد من بلاد الرق أو من بلاد الحرية ؛ فالسواد الأعظم من البشرية « يعتبر الرق خطأ أخلاقياً كبيراً ، وإن مشاعرهم ضده ليست مشاعر عابرة ولكنها أبدية ، لأنها تكمن فى قرار إحساسهم بالعدالة ، ولا يمكن العبث بها » .

١٠ — الانضمام للحزب الجمهوري:

في انتخاب المجلس التشريعي لولاية إلينوى عام ١٨٥٤ نجح المعارضون لمشروع كنساس ونبراسكا في الإمساك بزمام السلطة. ولم يكونوا جماعة سياسية منسجمة، إذ كان من بينهم الأحرار والديمقراطيون، كما انتمى إلى هذه الجماعة بعض الجمهوريين الجدد. فلم يكن يربط بينهم ويوحدهم إلا هدف مشترك: وهو معارضتهم للرق. ولكنهم كانوا يمثلون أغلبية واضحة بالمجلس التشريعي، وبذلك أمكنهم أن يعينوا واحداً منهم لشغل مقعد بمجلس الشيوخ الذي كان ينتظر أن يخلو في وقت قريب (ويجب ألا ننسى أن أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الحين كانوا ما يزالون ينتخبون بواسطة المجالس التشريعية لا بالانتخاب المباشر.)

وكان لنكولن يضع الترشيح نصب عينيه، وكان يرغب في أن يصبح شيخاً ثانياً يمثل إلينوى في مجلس الشيوخ مع ستيفن دوجلاس. وقد ذكر هرندون أنه أثناء اللحظات القلقة التي انقضت بين الانتخابات العامة واجتماع المجلس التشريعي كان لنكولن ينام وإحدى عينيه ساهرة كنابليون، «وكان يرسل الخطابات ويجمع المؤيدين لقضيته، ويعمل خلف المناظر». وفي يوم الاقتراع بدا كما لو كان سيكسب، وفي المحاولة الأولى نال ٤٤ صوتاً ضد ٤١ صوتاً نالها جيمس شيلدز وخمسة أصوات نالها لايمان ترمبول.. ولكن عندما تحول الديمقراطيون من شيلدز إلى المحافظ ماتيشون أحل لنكولن مؤيديه وطلب منهم أن يصوتوا لصالح ليمان ترمبول، وبذلك تم انتخابه. وقد كتب لنكولن إلى أحد أصدقائه قائلا: «لقد أسفت بعض الأسف لهزيمتي، ولكني لست قلقاً بشأنها. لقد كان في استطاعتي أن أتفوق على أي اتحاد وبذلك أنتخب، لولم يلعب ماتيسون لعبته المزدوجة، وإن هزيمته لتسعدني الآن أكثر مما تؤلمني هزيمتي.»

وقد راقب الأحداث الجارية فى كنساس باهتمام ، حيث كان مبدأ السيادة الشعبية يوضع موضع الاختبار لأول مرة . وحدث فى انتخاب المجلس التشريعى هناك أن تجمع خمسة آلاف رجل مسلح من ميسورى حول الحدود ، وملأوا صناديق الانتخاب ليضمنوا قيام مجلس تشريعى مؤيد للرق . وبعد ذلك بستة أشهر لم يعترف المستعمرون الذين يعارضون الرق بالمجلس التشريعى المحلى ، وطالبوا بالانضمام إلى الاتحاد تحت دستور ولاية حرة .

لقد مزقت معركة كنساس الحياة السياسية للبلاد ، فقد انقسمت الأحزاب ، وعارض الجناح الذى ينادى بالرق الجناح الذى يطالب بإلغائه، وفى النهاية اتحد المنادون بإلغاء الرق من الأحرار والديمقراطيين مكونين الحزب الجمهورى . ولقد أبطأ لنكولن كغيره من المحافظين فى الانضمام إلى التنظيم الجديد . وكتب إبان تردده هذا إلى أوين لوفجوى الذى كان يطالب بإلغاء الرق فى ١١ أغسطس سنة ١٨٥٥ قائلا . « وحتى أنت فى هذه اللحظة أكثر رغبة منى فى منع الرق ، ومع هذا فالجو السياسى الآن يجعلنى أخشى أن أفعل شيئاً لئلا أقع فى خطأ . »

ولكن تردده هذا تلاشى فى ربيع سنة ١٨٥٦ وأصبح اسمه ضمن الموقعين على عقد مؤتمر فى بلومنجتون معارض لمشروع نبراسكا .

ولقد سأل جون ستيوارت الذى ساوره القلق على المستقبل السياسى لشريكه السابق فى المحاماة ، سأل : هل وقع لنكولن حقيقة « دعوة إلغاء الرق ؟» وعندما اعترف هرندون بأنه هو الذى كتب اسم لنكولن فى القائمة صاح ستيوارت فى وجهه قائلا : « إذن فأنت الذى حطمته ! » وقد كتب هرندون الذى أزعجه ذلك إلى لنكولن ، وكان مسافراً فى الدائرة القضائية، وجاء الجواب : « حسناً ، استمر . سألتقى بكم وبالمتطرفين وبالجميع . »

وهكذا انضم إلى صفوف الجمهوريين . ثم شهد مؤتمر بلومنجتون مولد الحزب الجديد فى إلينوى ، وفى ذلك الاجتماع ألقى لنكولن خطاباً مثيراً،

وكتب هرندون الذى كان حاضراً : « لقد سمعت أو قرأت جميع خطب مستر لنكولن العظيمة ، وفى رأيى أن خطبته فى بلومنجتون كانت أروع مجهود قام به فى حياته ، فحتى ذلك الحين كان يناقش مسألة الرق على أسس سياسية فقط من وجهة نظر رجل الدولة ، ولم يتناول قط مسألة الحق الأساسى الأزلى . ولكنه الآن قد أعيد تعميده وولد من جديد ، وإن فيه حماس المؤمن الجديد . لقد توهجت الشعلة المخبوءة ، وانفجر بحماس لم يعهد فيه ، ولمعت عيناه بالإلهام ، وأحس بروح العدالة ، وتفتح قلبه للحق ، وتدفقت عواطفه العميقة الجياشة . لقد وقف أمام عرش الحق الأبدى ، وكانت خطبته ممتلئة لهيباً وحيوية وقوة . كانت منطقاً وعاطفة : كانت قطعة من الحماسة والعدالة والمساواة والصدق والحق الذى أشعلته النار المقدسة فى روح أثارها الظلم ، وكانت شديدة وعميقة صلبة يعززها الغضب. ولقد حاولت مدة خمس عشرة دقيقة كعادتى أن أكتب ما يقول ، ولكنى فى النهاية ألقيت بالورق والقلم ، وعشت فى وحى تلك الساعة . وإذا كان طول مستر لنكولن ست أقدام وأربع بوصات فلقد بدا فى بلومنجتون وكأن طوله سبع أقدام . وكان فوق ذلك ملهما . »

ولسوء الحظ لم يكن هرندون وحده هو الذى رمى الورق والقلم . وهكذا لم يسجل أحد تلك الخطبة وقد اشتهرت فيما بعد باسم الخطبة المفقودة ..

وبعد انقضاء أسبوعين على اجتماع بلومنجتون اجتمع أول مؤتمر جمهورى للترشيح للرياسة فى فيلادفيا ، وأخذت الأصوات فى هذا الاجتماع بصفة غير رسمية فنال لنكولن ١١٠ صوتا فى ترشيح نائب الرئيس . وحينما قرأ لنكولن ذلك فى سبرنجفيلد صاح قائلا : « أعتقد أننى لست المقصود ، هناك رجل آخر عظيم فى ماساشوستس يسمى لنكولن ، وأعتقد أنه هو المقصود بذلك . » ومع هذا ففى التصويت النهائى لم ينتخبه المؤتمر بل انتخب وليم ل . دايتون مرافقا لجون ك . فريمونت الذى رشح للرياسة .

١١ - المعركة الانتخابية:

خطب لنكولن فى انتخابات الرياسة لعام ١٨٥٦ مؤيداً مرشحى الجمهوريين . ولكن جون ك . فريمونت خسر الانتخابات ، وأصبح شاغل البيت الأبيض الجديد فترة أخرى من الديمقراطيين وهو جيمس بوكانان من ولاية بنسلفانيا . وعند تنصيب الرئيس الجديد كانت الاضطرابات فى كنساس قد هدأت ، ولكن حدث بعد ذلك بيومين أن صدر قرار المحكمة العليا بشأن الزنجى درد سكوت ، واضطربت العواطف أكثر من ذى قبل ، فقدكان رأى المحكمة أن الزنوج ليسوا مواطنين وإنما هم ملكية ، وإذا حدث أن أخذ أحد ملاك الزنوج عبداً من عبيده إلى ولاية لا يوجد فيها رق فإن قانون تلك الولاية لا يستطيع أن ينتزع ذلك العبد منه . وأشار القرار إلى أن الكونجرس ليس له الحق فى منع الرق فى أى مكان بالولايات المتحدة ، وعلى هذا فإن اتفاقية ميسورى التى تمنع الرق شمال الخط ٣٦٫٥ كانت اتفاقية غير دستورية .

وسرعان ما تلقف النائب دوجلاس ذلك القرار ونادى بأنه طالما أن اتفاقية ميسورى غير دستورية فيجب أن يحل محلها مبدأ السيادة الشعبية .

وقد فند لنكولن مزاعم دوجلاس فى خطبة ألقاها فى سبرنجفيلد فى ٢٦ يونية سنة ١٨٥٧ ، وهى الخطبة العامة الوحيدة التى ألقاها فى تلك السنة ، فناقش قرار درد سكوت ، وخلافاً لما افترضته المحكمة العليا من أن أحوال الشعب الزنجى قد تحسنت منذ عهد الثورة ذهب لنكولن إلى أن « مصير الإنسان الملون لم يكن قط أشد ظلاما مما بدا عليه خلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الماضية » وقال إنه فى أيام الثورة كان إعلان الاستقلال

مقدساً عند الجميع ، وكان يعتبر شاملا للجميع ، ولكن حين يساعد بعض الناس فى الوقت الحاضر على جعل استعباد الزنوج عاماً وأبدياً فإنه يظهر لنا أن إعلان الاستقلال يتلق الطعنات ، وأنه أصبح محل سخرية وزراية واحتقار ، وأنه قد مزق وشوه حتى إن الذين شكلوه لو بعثوا من قبورهم لما أمكنهم أن يتعرفوا عليه .

وسخر لنكولن من « منطق دوجلاس الزائف » الذى يدعى بموجبه أن الجهوريين . يرغبون فى أن يصوتوا مع الزنوج ويأ كلوا معهم ويناموا معهم ويتزوجوا منهم . « إذ كيف يمكن لأى إنسان أن يستنتج أنه إذا لم أكن راغباً فى اتخاذ المرأة الزنجية أمة لى فإنى ولابد راغب فى أن أتخذ منها زوجة . فليس من الضرورى أن أريدها لأحد الغرضين ، وإنما أستطيع أن أتركها وشأنها . وهى قد لا تكون مساوية لى فى بعض النواحى ولكنها مساوية لى ومساوية لغيرى فى حقها الطبيعى فى أ كل الخبز الذى تكسبه بيديها دون أن تسأل أحداً الإذن لها بذلك . »

وكان من رأى لنكولن أن دوجلاس وتانى قاضى المحكمة العليا « كانا يحرفان لغة إعلان الاستقلال الواضحة التى لا لبس فيها » ، وأن واضعى تلك الأداة العظيمة أرادوا أن تشمل جميع الناس ، وإن لم يقصدوا أن يعلنوا تساوى جميع الناس من جميع الوجوه . فلم يكن غرضهم القول بأن الناس متساوون فى لونهم وحجمهم وذكائهم ومستواهم الخلقى أو مقـــدرتهم الاجتماعية ، ولكنهم أوضحوا بجلاء النواحى التى يعتقدون أن الناس جميعاً متساوون فيها ، وهى تساويهم فى (حقوق معينة لا يمكن المساس بها ، ومن بينها الحق فى الحياة وفى الحرية وفى السعى وراء السعادة) ، هذا ما قالوه وهذا ما عنوه . »

وقد أكسبه ذلك المنطق أصدقاء جددا ، إذ كان موقفه واضحاً يرضى المعتدلين .. لقد كان ينادى بإطاعة القوانين والعمل بمقتضى الدستور »

ولما كانت قوانين البلاد تعترف بالرق فقد كان يرى حمايته حيث وجد ، ولكنه كان يعارض فى توسيع الرقعة التى كان يمارس فيها .

وفى تلك الأثناء استمرت المعركة فى كنساس . وقدم المجلس التشريعى لتلك الولاية ، الذى كان مناصرا للرق ، فى اجتماع عقد فى ليكومپتون ، اقتراحاً بإضافة مادة إلى الدستور تضمن حق تملك العبيد . وعلى هذا يظل الرق قائماً فى تلك الولاية أياً كان الجانب الذى يصوت الناس فى صفه .

وقد دمغ الشمال مشروع ليكومپتون بالغش والخداع ، وعندما أوصى الرئيس بوكانان — رغبة فى الاحتفاظ بالوحدة فى صفوف حزبه — بالاعتراف بكنساس على أنها ولاية تسمح بالرق ، هزت البلاد صيحات الاستنكار لموقفه هذا ، وهاجم النائب دوجلاس دستور ليكومپتون ، على اعتبار أنه خرق لمبدأ السيادة الشعبية ، واختلف مع الحكومة . ولما كانت دورته النيابية على وشك الانتهاء . فقد عزم على عرض المشكلة على الناخبين ، وهو واثق من أن ناخبى إلينوى سوف يؤيدون سياسته .

وكان لنكولن مستعداً لتحدى دوجلاس ، وراغبا كل الرغبة فى أن ينتخب شيخا ، ولكن كان يجب عليه أولا أن يقضى على اقتراح السياسيين الشرقيين الذين حثوا الجمهوريين فى ولاية إلينوى على مساندة دوجلاس الديمقراطى فى معركته ضد الرئيس بوكانان . ومرت بلنكولن شهور عصيبة .

وبمقدم الربيع تحسنت الأمور . فكتب لنكولن فى ١٥ مايو عام ١٨٥٨ إلى أحد أصدقائه : « أعتقد أن آمالنا تسير فى طريق التحسن تدريجيا وباطراد ، بالرغم من أننا لم نتجاوز بعد مرحلة الخطر . ذلك أنه مازال هنا بعض الجهود التى تبذل لخلق المتاعب ، على أساس أن لأمريكا صفاتها المميزة . فإذا تخلصنا من هذه الفكرة وحدها فإننا نكون — كما أعتقد — قد جاوزنا مرحلة الخطر . »

ولم يأت شهر يونية إلا وقد تجاوز لنكولن مرحلة الخطر . فى ذلك

الشهر أعلن مؤتمر الجمهوريين فى ولاية إلينوى بالإجماع « أنه هو المرشح الأول والوحيد لمجلس الشيوخ . »

وكانت تلك لطمة لكل من زكى ترشيح دوجلاس . وفى غمرة السرور أعد لنكولن خطبة القبول ، ولكنه عندما قرأها على بعض أصحابه لم يرضوا عنها ، وانتقدوا الفقرة التى جاء فيها قوله : « إن بيتاً منقسماً على نفسه لا يمكن أن يدوم ، وإنى أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكن أن تبقى أبداً ونصفها عبيد ونصفها أحرار ، فإما أن تصبح كلها عبيدا وإما أن تصبح كلها أحراراً ». فقد رأى أحد أصدقائه أن ذلك كان « قولا أحمق » ، وقال آخر إنه « سابق لعصره » .

ولكن لنكولن صمم على عدم تغيير تلك الجمل التى انتقدت ، وظل دائما يفخر بتلك الخطبة . وقد قال بعد ذلك بسنين : إذا كان على أن أمحو سجلاتى وأمسح حياتى كلها من الوجود ولا يبقى لى سوى شىء واحد أختاره من بين الحطام فإنى أختار تلك الخطبة وأتركها للعالم دون أن تمحى . »

وفى خطابه هذا اقترح : « إما أن يوقف معارضو الرق انتشاره ويضعوه حيث يمكن أن يطمئن الرأى العام إلى أنه سائر فى طريق الفناء النهائى ، وإما أن يدفعه مؤيدوه إلى الأمام حتى يصبح قانونيا فى جميع الولايات على السواء ، قديمها وحديثها ، شماليها وجنوبيها » .

وتنبأ بمجىء اليوم الذى تعلن فيه المحكمة العليا أن الدستور لا يسمح لولاية من الولايات بأن تمنع الرق . « وسواء رحب الناس بهذا القرار أم لم يرحبوا فإنه آت على الأرجح وسيفاجئنا سريعاً مالم نجابه الأسرة السياسة الحاكمة الآن ونطوح بها بعيدا . »

وعندما علم دوجلاس أن منافسه لن يكون سوى لنكولن انفجر قائلا : « إن إيب لنكولن هو أقــــدر الأحرار الملاعين فى سبرنجفيلد وأشدهم إخلاصاً ... وسيكون أمامى مجهود عسير ، فهو رجل حزبه القوى ،

وهو ممتلىء ذكاء وحقائق وتواريخ ، وهو أحسن الخطباء فى الغرب بدعابته وقفشاته اللاذعة . »

وألقى « العملاق الصغير » أول خطبة له فى الحملة الانتخابية فى شيكاغو فى ١٩ يوليو ، وهاجم نظرية لنكولن عن البيت المنقسم على نفسه ، وأوضح أن الأمة عاشت وجزء منها مستعبد والآخر حر مدة اثنين وثمانين عاما ، ولكن معارضه يذهب الآن إلى توحيد نظمنا الوطنية ، ويؤيد قيام حرب بين الفريقين حتى يخضع أحدهما للآخر . وأعاد دوجلاس ذكر معتقداته السياسية قائلا : « إنى أؤيد مشروع كنساس ونبراسكا وحق الناس فى أن يقرروا لأنفسهم ما يريدون . »

وفى الليلة التالية رد لنكولن على حجج منافسه من شرفة بيت تريمونت ، وقد ذكرت صحيفة « برس آند تريبون » فى شيكاغو أن مستمعيه كانوا من ناحية العدد ثلاثة أرباع المستمعين لدوجلاس فقط ، ولكنهم كانوا أربعة أضعافهم من ناحية الحماسة . تناول لنكولن حجج خصمه الواحدة تلو الأخرى : وهى مبدأ السيادة الشعبية ، ودستور ليكومبتون ، والحكم فى قضية دردسكوت : وأطنب فى مهاجمتها تارة بالدعابة وتارة بالحقائق الراسخة . وختم خطابه بقوله : « لندع الجدل الفارغ حول تخلف هذا الرجل وذاك الرجل ، وهذا الجنس وذاك الجنس والجنس الآخر ، وأن ذلك يستتبع وضعهم فى منزلة دنيا ، متخلين بذلك عن المبادىء التى ورثناها . لندع هذا كله ولنتحد شعباً واحداً فى جميع أنحاء هذه البلاد حتى نستطيع أن نقف مرة ثانية وننادى بأن الناس جميعاً خلقوا متساوين . »

وهكذا بدأت المعركة الانتخابية . واتخذ دوجلاس من عربة السكة الحديدية الخاصة به مركزاً له ، أما منافسه فقد ظل يلاحقه ، وكان لنكولن يركب أحيانا كمسافر فى القطار الذى يجر عربة دوجلاس الخاصة .
وبعد أن خطبا فى سبرنجفيلد ، تحدى لنكولن دوجلاس أن يدخل معه فى سلسلة من المناظرات .

وحدث قبل بدء المناظرات بوقت قصير أن قابل لنكولن صديقا له أبدى شكه فى استطاعته الصعود أمام دوجلاس . ورد عليه لنكولن قائلا: « هل رأيت رجلين على وشك أن يتعاركا ، أحدهما يباهى بما يعتزم أن يفعله ، فهو يقفز فى الهواء ويدق عقبيه أحدهما بالآخر ويلوح بقبضتيه ويضيع جهده فى محاولته إرهاب شخص ما ؛ أما الرجل الآخر فإنه لا ينطق بكلمة ، ذراعاه إلى جانبه وقبضتاه مشبوكتان ورأسه مائل على كتفيه وأسنانه مطبقة على بعضها البعض ؟ إنه يحتفظ بعقله للحركة ، ولا شك أنه سينتصر أو يموت . »

حدد لمناظرتهما الأولى يوم ٢١ أغسطس فى أوتاوا ، وحضر الناس إلى هذه المناظرة بالقطار والعربات والزوارق الشراعية وعلى ظهور الخيل وعلى أرجلهم ، وانطلقت عشرة آلاف حنجرة حينما صعد المتناظران إلى المنصة ؛ ووقف عشرة آلاف رجل فى هجير الشمس اللافح مدة ثلاث ساعات يستمعون إلى حجج كل منهما .

وعندما انتهى الاجتماع قام أنصار لنكولن المتحمسون بحمله على أكتافهم . وقد أشار دوجلاس فى خطبته التالية إلى ذلك بقوله : « إن المناقشة استنفدت قوى لنكولن حتى إن ركبه خارت وكان فى حاجة إلى أن يحمله الناس خارج المنصة . »

وبعد ذلك بأسبوع تقابلا فى فريبورت أمام جمع من الناس بلغ خمسة عشر ألفاً . وقد سأل لنكولن دوجلاس عما إذا كان لسكان مقاطعة من المقاطعات ، بالنظر إلى الحكم الخاص بدردسكوت ، « أن يمنعوا الرق بطريقة قانونية داخل حدودهم ، خلافا لرغبة أى مواطن فى الولايات المتحدة ، قبل وضع دستور للولاية ؟ » وأجاب دوجلاس بأن مبدأ السيادة الشعبية لا يتعارض مع الحكم الخاص بدردسكوت ، وأن الأمر بيد الناس فى أن يدخلوا الرق أو يمنعوه فى مقاطعاتهم ، فإذا كانت أغلبيتهم تعارض الرق فإن ممثليهم المنتخبين « يمكنهم بتشريع مناهض أن يمنعوا بطريقة فعالة إدخال الرق بينهم » . وقد عرفت عبارة دوجلاس هذه بمبدأ فريبورت .

واستمرت المناظرات فى جانزبورو وتشارلزتون وجالزبرج فى مشاهد بهيجة تصدح فيها الفرق الموسيقية وتقام الإستعراضات العسكرية وتطلق المدافع وتضىء الصواريخ السماء بالليل وتنشد الفرق الغنائية للمرشحين .

وأثناء هجمات دوجلاس المتصلة كان لنكولن يقوم بتصفية ذهنه ومراجعة أفكاره وتوسيعها ، فلم يعد يجادل فى أن الحكومة « لا يمكن أن تبقى أبداً ونصفها عبيد ونصفها أحرار » ، بل أوضح أنه لا ينوى أن يجعل البيت كله حراً عن طريق التدخل فى أمر الرق بالولايات التى يقوم الرق فيها ، وكل مايريده هو أن يقلب الاتجاه .

وفى كوينسى التى كانت مقرا للمناظرة السادسة رأى كارل شورتس [1] لنكولن لأول مرة ، ووصفه بقوله «كان يضع فوق رأسه قبعة مطبقة أشبه بمدخنة الموقد . وقد برزت رقبته الطويلة الممتلئة بالعضلات من ياقة بيضاء مقلوبة على رباط عنق أسود نحيل ، وكان جسمه الضامر مكسواً بسترة سوداء قديمة قصيرة الأكمام ، ولكن ذراعيه بدتا طويلتين لدرجة لا يمكن معها توقع أن أى سترة جاهزة يمكن أن تغطيها حتى الرسغين ، وكان سرواله الأسود كذلك يسمح برؤية منظر كامل لقدميه الكبيرتين ، وكان يحمل على ذراعه اليسرى شالا من الصوف رمادى اللون ، كان يستخدمه بلا شك بدلا من المعطف فى الجو البارد ، ويده اليسرى تمسك مظلة قطنية من النوع المنتفخ ، وحافظة سوداء تظهر عليها علائم الاستعمال الطويل الكثير . »

وقدم لزيارته الكاتب الفكاهى دافيد ر. لوك الشهير باسم بترو ليام ف . ناسبى ، وسأله هل يظن أنه سينجح ؟ فأجاب لنكولن بالنفى ، وقال إنه لا يتوقع أن ينجح بسبب تمزيق الدائرة ، ولكنه يأمل أن يفوز فى الاقتراع

(١) كاتب وصحفى أمريكى ، من أصل ألمانى ، اشترك فى الحرب الأهلية فى صف الاتحاد وأبلى فيها بلاء حسنا . (المراجع)

الشعبي . « إنك لا تستطيع أن تقلب الهرم ، ولـكنك تقدر أن تحفر تحته ليسقط ، وهذا ما أحاول أن أفعله . »

وفى المناظرة الأخيرة فى ألتون لخص لنكولن معتقداته بقوله : « إن القضية الحقيقة فى هذه المناظرة ، القضية التى تلح على كل عقل هى إحساس طبقة من الطبقات تنظر إلى نظام الرق على أنه ظلم ، وإحساس طبقة أخرى لا تنظر إليه على أنه ظلم . . إنهم (أى الجمهوريين) ينظرون إليه على أنه ظلم أخلاقى واجتماعى وسياسى ، وبالرغم من أنهم ينظرون إليه على هذا النحو فهم مع ذلك يدخلون فى اعتبارهم أنه قائم فعلا بيننا ، والصعاب التى تنشأ عن إلغائه بطريقة مرضية ، وكل الالتزامات الدستورية المرتبطة به . . وإذا كان بيننا رجل واحد لا يعتقد أن نظام الرق خطأ من أية ناحية من النواحى التى تكلمت عنها فهو رجل لم يوضع فى موضعه ، ويجب ألا يكون معنا . »

وكانت نتائج المعركة الانتخابية فى صالح دوجلاس ، وإن كان لنكولن قد نال أربعة آلاف صوت من الأصوات الشعبية أكثر مما ناله دوجلاس، ولـكن المجلس التشريعى الذى كان يعين عضو الشيوخ انتخب دوجلاس بأغلبية ٥٤ صوتاً ضد ٤١ صوتا للنكولن .

وعندما سئل لنكولن كيف تلقى الهزيمة أجاب بأنه سرد على السائل قصة . فقدتذكر أنه فى ليلة الانتخاب عندما سار فى الشوارع المظلمة وهو فى طريق العودة إلى منزله « كان الطريق زلقا فزلت قـدمى من تحتى ، ودفعت القدم الأخرى عن الطريق ، لـكنى تماسكت وقلت لنفسى . إنها زلقة لا سقطة . »

١٢ ـ كيف أصبح مرشحا للرياسة

لقد جعلت تلك المناظرات اسم لنكولن معروفا فى بلاد تبعد كثيرا عن الولاية التى ينتمى إليها ، وبدأ كتاب الصحف الصادرة فى إلينوى يشيرون إليه على أن من الجائز ترشيحه للرياسة .

ولقد كان فى بادىء الأمر متردداً فى تلبية النداء ، وكتب إلى أحد محررى الصحف المتحمسين لترشيحه : « يجب أن أقرر فى صراحة أننى لاأعد نفسى مرشحاً كفءاً للرياسة . » وعندما صمم المحرر على الاتصال بغيره من الصحفيين الجمهوريين المؤيدين لترشيحه رجاه لنكولن قائلا : « أعتقد أنه من الأحسن للأهداف التى تسعى إليها ألا يبذل أى مجهود منسق كذلك الذى تقترحه . » ولكنه قبل الفكرة مع مضى الزمن . وفى نهاية عام ١٨٥٩ لم يعد قط إلى ترديد ما كان يقوله عن عدم لياقته للرياسة ، وسلك مسلك المرشحين للرياسة .

وقد سافر فى فبراير عام ١٨٦٠ إلى نيويورك حيث كان مقرراً أن يخطب فى الاتحاد المركزى لشباب الجمهوريين . وعلقت جريدة « إلينوى ستيت ريجستر التى تصدر فى سپرنجفيلد وتنطق بلسان الديمقراطيين على هذه الرحلة فى تهكم بما يأتى : « الموضوع : غير معروف . يبدو أنه الحصول عن مائتى دولار المصاريف . الهدف : مخصصات رئيس الجمهورية . نتيجة : خيبة الأمل » .

على أن الجريدة كانت بعيدة عن الصواب ، فقد جاء أكثر من ألف وخمسمائة رجل إلى « كوپريونيون » ليسمعوا المحامى القادم من إلينوى ويصفقوا له .

وقد بدأ خطابه بإعلان موافقته على جملة أوردها السناتور دوجلاس «

وهى « إن آباءنا عندما شكلوا هذه الحكومة التى نعيش فى كنفها كانوا يفهمون مسألة الرق » وبعد أن نقب جيدا فى تاريخ الرجال التسعة والثلاثين الذين وقعوا على الدستور وشرح مواقفهم وجه النصح الآتى : « تكلموا كما كانوا يتكلمون وتصرفوا كما كانوا يتصرفون . هذا كل ما يطلبه الجمهوريون كل ما يتمناه الجمهوريون فى شأن الرق . فلنقل مثل ما كان يقوله أولئك السلف . لنقل إن الرق شر يجب ألا يمتد ، ولتكن يجب التسامح فيه وحمايته لأن وجوده الفعلى بيننا يحتم ذلك ، على ألا نتجاوز فى هذا التسامح وهذه الحماية القدر الذى يحتمه وجوده الفعلى بيننا . ولتكن جميع الضمانات التى أعطاها الآباء له مصونة صيانة كاملة عادلة بلا إجحاف ولا سخط . هذا ما يوافق عليه الجمهوريون ، وهذا هو ما يرضون عنه على قدر معرفتى واعتقادى . »

وأنكر لنكولن أن الشمال يدعو إلى الانقسام وأن الجمهوريين لهم صلة بثورة « جون براون » العنيفة لإلغاء الرق ، وكان هذا الرجل قد حاول فى العام السابق الاستيلاء على مخازن الأسلحة التابعة للحكومة الاتحادية فى هاربرز فيرى . وأنكر لنكولن كذلك أن الشمال يرغب فى إثارة التمرد بين الأرقاء .

ثم طرح هـذا السؤال : « ما الذى يرضى عنه الجنوب ؟ » وأجاب بأنه ينحصر فيما يأتى « لا يكفى أن نتركهم وشأنهم ، بل يجب إلى جانب ذلك أن نقنعهم بطريقة ما أننا نتركهم وشأنهم حقا . » ثم استرسل فى إبراز تفاصيل هذه الأفكار قائلا : « مهما يكن رأينا فى أن الرق ظلم فإننا نستطيع احتمال بقائه الفعلى حيث هو ، لأن ذلك إنما مرده إلى الحاجة النابعة من وجوده الفعلى فى البلاد . ولكن هل نستطيع السماح له بأن ينتشر إلى أراضى المقاطعات الإدارية ويتغلب علينا هنا ، فى حين أن أصواتنا تمكننا من صده ؟ إذا كان إحساسنا بالواجب يمنع ذلك فيجب أن ننهض بهذا الواجب فى شجاعة وثبات » .

وقد قوطعت الخطبة بالتصفيق فى مواضع كثيرة ، وعندما انتهى لنكولن من خطابه وقف جمهور المستمعين على الأقدام وهم يهللون . وعلق الصحفى نوح بروكس على ذلك بقوله : « لم يحدث لرجل من قبل أن ترك مثل هذا الأثر وهو يواجه جمهورا فى نيويورك لأول مرة . إنه أعظم رجل وجد بعد القديس بولس . »

وبعد محاضرته فى « كوبريونيون » زار لنكولن ابنه الأكبر روبرت الذى كان يدرس فى أكاديمية فيليبس بإكستر بمقاطعة نيوهامبشير ، ولم يستطع أن يبقى مع ولده إلا وقتا قصيرا ، فقد كانت الدعوات له بإلقاء الخطب تترى ، وعندما انتهت الزيارة طاف بنيو إنجلند ، وكان يتحدث كل يوم فى بلد ، وقد تحدث إحدى عشرة مرة فى عدد مماثل من الأيام ، وكان موضوع خطبه الرئيسى هو الرق . وقد قال فى هارتفورد : « إن أكثر من سدس سكان الولايات المتحدة من العبيد ، ينظر إليهم على أنهم ممتلكات ولا شىء سوى ممتلكات . إن ثمن هؤلاء العبيد ، مع الاعتدال فى التقدير ، هو ألفا مليون من الدولارات ، وطبيعى أن ممتلكات هذه قيمتها لابد أن تؤثر فى تفكير أصحابها ولو كان لأهل الشمال مثل هذا القدر من الممتلكات لكان لها مثل ذلك التأثير . »

وفى نيوهافن استطرد إلى موضوع إضراب صناع الأحذية فى ماساشوستس ، وسخر من ادعاء دوجلاس أن الإضراب نشأ من « هذه الحرب الطائفية المحزنة » ثم أعلن ما يأتى : « إننى سعيد إذ أرى نظاماً للعمل فى نيو إنجلند يستطيع العمال بمقتضاه أن يضربوا عندما يريدون ، ولا يضطرون إلى العمل تحت أى الظروف ، ولا يكونون مقيدين أو ملزمين بالعمل سواء دفعت لهم الأجور أم لم تدفع . إنى أحب النظام الذى يسمح للعامل بترك العمل إذا رغب فى ذلك ، وأتمنى أن يسود فى كل مكان . » وكان خطابه يقاطع بالتصفيق . لقد أحب الجمهور كلام ذلك المحامى النحيل الغريب الشكل

القادم من وسط الغرب . ومضى يقول : « إن أحد الأسباب التى تدعونى إلى معارضة الرق هو هذا بالضبط : ما الوضع الحقيقى للعامل ؟ أعتقد أنه من الخير للجميع أن نترك لكل فرد حرية التملك بأسرع ما يمكن . سيصبح البعض أثرياء . أنا لاأومن بأى قانون يحرم على الفرد أن يصبح ثريا، إذأن ذلك يؤدى إلى الضرر أكثر مما يؤدى إلى المنفعة ، ولهذا فنحن لانثير حربا على رأس المال ، ولكننا نرغب فى الوقت نفسه أن نتيح لأكثر الناس تواضعاً فرصة مساوية لفرصة أى إنسان آخر كى يصبح ثريا . وحينما يبدأ الفرد حياته فقيراً ، وهذا شأن الكثيرين فى حلبة الحياة ، فهو يعلم أن المجتمع الحر يسمح بتحسين ظروف معيشته ، ويعلم أنه لا توجد ظروف ثابتة للعمل مدى حياته . »

لقدكانت جولة نيو إنجلند ناجحة جداً ، وعند عودته إلى موطنه استقبله نادى الجمهوريين فى سبرنجفيلد مؤكداً : « أنه يوجد عدد غير قليل من مواطنيك فى شتى أنحاء البلاد قد عبروا عن ميلهم إلى أن تكون مرشح الحزب الجمهورى لدورة الرياسة القادمة . . . »

لقد أصبح الآن موافقاً كل الموافقة على الترشيح . وأرسل سيلامتصلا من الخطابات إلى الأصدقاء والسياسيين ، فكتب إلى محام جمهورى فى كولمبس بأوهايو يقول : « إن اسمى جديد فى الميدان ، وأعتقد أنى لست المرشح الأول بالنسبة لعدد كبير جداً من الناس ، ولهذا ستكون سياستنا ألانسىء إلى الآخرين بل نتركهم فى حالة نفسية تساعدهم على المجىء إلينا إذا اضطروا للتخلى عن مرشحهم المفضل . » وكتب إلى لايمان ترمبول مصرحا بقوله : « إنى أجد للأمر طعما ما. يحسن ألا ترسل خطابات يمكن أن تؤول بأنها معارضة أو شبه معارضة لى . »

لقدكانت له جميع مزايا المرشح المثالى . فقدكان ضد الرق برغم أنه لم يكن راديكالياً أو مطالباً بالإلغاء ، وكان اسمه معروفا ولكنه لم يكن معروفا

أكثر مما ينبغى ، وكان سياسياً ذا ماض طويل إلا أنه لم يكن قد استمر طويلا فى السياسة الوطنية حتى أصبح له أعداء كثيرون . وبما أنه كان من إلينوى فقد كان المنتظر أن يحصل على أصوات ولاية يشك فى ولائها للجمهوريين ، وكانت تلك الأصوات لازمة للنصر . وفى مؤتمر الجمهوريين لولاية إلينوى سار بين الصفوف العجوز جون هانكس الذى كان يعرف لنكولن منذ طفولته وفى يديه عمودان كان هو ولنكولن قد شقاهما معاً لصنع سياج ، فصفق المندوبون ، وألقى لنكولن خطبة قصيرة قال فيها إنه ليس واثقاً أنه قد شق هذين العمودين منذ ثلاثين سنة تقريباً ، ولكن سواء أكان قد صنع هذين العمودين أم لا فإنه قد شق أعمدة أحسن منهما . وبعد هذا المنظر المثير قرر المؤتمر : « إن أبراهام لنكولن هو المرشح الذى اختاره الحزب الجمهورى بإلينوى للرياسة ، وعلى مندوبى ولايته أن يستخدموا كل الطرق الشريفة لضمان ترشيحه فى مؤتمر شيكاغو ، وأن يصوتوا له متحدين . »

١٣ — المؤتمر الجمهورى :

اتجهت أفكار البلاد إلى شيكاغو المدينة الكبيرة التى يقطنها مائة وعشرة لاف من السكان حيث التقى الجمهوريون لاختيار مرشحيهم .

وبقى لنكولن فى سبرنجفيلد ، إذ لم يكن للمرشحين مكان فى المؤتمرات الخاصة بالترشيح . ولكن مديرى أعماله كانوا هناك بكامل عددهم ، وهم : نورمان جود ، وستيفن ت . لوجان ، ورتشارد ييتس ، وأورفيل برونبج ، وجوزيف مديل مندوب جريـــدة « برس آند تريبيون » فى شيكاغو ، وچسى فل عن جريدة « بانتاجراف » فى بلومنتجون . وكانوا زمرة مخلصة من المحامين والمحررين والسياسيين — رجالا سافروا معه فى الدائرة القضائية ، وارتبطوا وإياه برباط الصداقة ، ووثقوا به واحترموه . وكان زعيمهم الثرى داڤيد داڤز قاضى الدائرة الثامنة ، فأيقنوا أنهم يستطيعون الظفر بترشيح لنكولن .

وكانت خطتهم واضحة : ذلك أن الرجل الذى كان عليهم أن يهزموه هو وليام ه . سيوارد زعيم الحزب المعترف به وأبرز المتقدمين للترشيح ، وعلى هذا كانت مهمة مديرى أعمال لنكولن هى أن يحشدوا جميع المندوبين الذين يعارضون سيوارد ، هؤلاء الذين يعارضونه بسبب موقفه المتطرف فى مسألة الرق ، وهؤلاء الذين لا يرتاحون إلى اختيار رجل أشار إلى ذلك الخلاف على أنه « صراع لا يمكن تجنبه » وقال « إن هناك قانوناً أعلى من الدستور . » وكان عليهم أن يقنعوا المندوبين أن « لنكولن لا يثير حقدا فى أى مكان » وأنه « لم يقدم سجلا يجب الدفاع عنه أو شرحه » ، فهو الذى يمكن أن يلتف حوله جميع الجمهوريين .

ولاحظ مديرو أعمال لنكولن أنه لإحراز النجاح فى الانتخاب

يحتاج الجمهوريون إلى أصوات بنسلفانيا وإنديانا وإلينوى ونيوجرسى ، وعلى هذا يجب اختيار مرشح يمكنه أن يفوز فى هذه الولايات المشكوك فيها . ولم يكن لديهم فى البداية غير أصوات إلينوى ، ولكنهم ظلوا وراء المندوبين الآخرين يساومون ويبذلون الوعود ويحصلون على الأصوات فى مقابل المساعدات . وحينما علم لنكولن بذلك وهو فى سبرنجفيلد أرسل إليهم البرقية التالية : « إنى لا أوافق على أية مساومة ، ولن أرتبط بأى منها » ، فشتمه أحد مديرى أعماله قائلا : « لعنة الله على لنكولن ! » واستمروا فى مساومتهم واسترضائهم وتملقهم وإعطاء الوعود بصرف النظر عن رأى مرشحهم .

فكسبوا إنديانا بوعدهم أنهم سينصبون ؟ كالب . سميث رئيس وفد هوزير وزيراً للداخلية ، ووليم ب . دول مندوباً لشئون إنديانا .

ودعا جون ؟ . أندرو رئيس وفد ماساشوستس زملاءه من نيوجرسى وبنسلفانيا وإنديانا وإلينوى أن يقفوا وراء مرشح واحد ولا يبعثروا الأصوات بين ثلاثة مرشحين . وقال أندرو : « من المستحيل ترشيح هؤلاء الثلاثة . ومالم تتفقوا أنتم مندوبى الولايات الأربعة المشكوك فيها على مرشح واحد ترون أنه يستطيع الفوز فى هذه الولايات فنحن مندوبى نيوإنجلند سنصوت لمن اخترناه وهو وليم هـ . سيوارد مرشح ولاية نيويورك . أما إذا اتحدت كلمتكم حول مرشح واحد تقدمون اسمه فسنعطيه من الأصوات ما يكفى لترشيحه . »

وبعد الاطمئنان على أصوات إلينوى وإنديانا جرى رجال لنكولن وراء أصوات بنسلفانيا الستة والخمسين . وفى الليلة السابقة للاقتراع خرج القاضى داڤيد داڤيز من حجرات مندوبى بنسلفانيا قائلا : « علينا اللعنة إن لم نظفر بهم ! » وسأله صديق : « كيف كسبتهم ؟ » فأجاب داڤيز : « بدفع الثمن » . وكان الثمن هو منصب وزير الخزانة الذى وعـــد بأن يشغله

سيمون كاميرون الرئيس السياسى لپنسلفانيا . وزمجر الصديق قائلا : « يا للسماء ! تعطون وزارة الخزانة لكاميرون ؟ أى شىء يبقى بعد ذلك ؟» ورد عليه داڤيز : « وما الضرر ؟ نحن نسعى إلى هدف أكبر . إننا نريد الرياسة وليست وزارة الخزانة ثمنا غالياً لها . »

وفى نفس الليلة فكر اثنان آخران من مديرى أعمال لنكولن فى طبع بطاقات مزيفة لدخول قاعة المؤتمر وتوزيعها على أنصارهم ، وعندما طلع الفجر كان السرادق الانتخابى قد اكتظ بحملة هذه البطاقات الذين كانوا على استعداد أن يهللوا لترشيح أبراهام لنكولن .

وكان مؤيدو سيوارد الواثقون من النصر يتجولون فى شوارع شيكاغو ، وعندما وصلوا إلى القاعة كانت المقاعد كلها قد شغلت ، ولم يجدهم شيئا تلويحهم بالتذاكر فى غضب ، فقد كانت القاعة ممتلئة واضطروا أن يبقوا فى الخارج .

ووسط جو من التوتر الشديد بدأ الاقتراع . ولم تكن الجولة الأولى تدعو إلى الدهشة فقد أعطت ولاية « مين » عشرة أصوات لسيوارد وستة للنكولن ، وكانت فيرمونت فى صف ابنها الحبيب السيناتور كولامر ، وأعطت ماساشوستس ٢١ صوتا لسيوارد وأربعة للنكولن ، أما أغلبية أصوات رود أيلند فقد ذهبت للقاضى ماكلين ، كما ذهبت أغلبية أصوات كونكتكت إلى بيتس . وكانت نيويورك بأصواتها السبعين وراء سيوارد ، ونيوجرسى خلف « ابنها البار » دايتون ، وكانت أغلبية أصوات بنسلفانيا كذلك « لابنها البار » سيمون كاميرون ، وصوتت ديلاوير وماريلاند لبيتس ، وأعطت فرجينيا ثمانية أصوات لسيوارد وأربعة عشر صوتاً للنكولن ، وتوزعت أصوات كنتكى على خمسة مرشحين هم سيوارد ولنكولن وتشيس وماكلين وسمنر ، وذهبت أغلبية أصوات أوهايو لتشيس ، وأعطيت أصوات إنديانا جميعها للنكولن ، وميسورى لبيتس ، وكانت أصوات متشجان

ووسكونسون وأغلبية تكساس لسيوارد ، وانقسمت أصوات أيوا ، وأيدت كاليفورنيا ومينوسوتا سيوارد ، ووقفت أوريجون خلف بيتس ، وأعطت أقاليم نبراسكا وكنساس ومقاطعة كولومبيا عشرة من أصواتها الأربع عشرة لسيوارد .

وكانت النتيجة أن جاء سيوارد فى المقدمة إذ حصل على ١٧٣½ صوتاً ، ولنكولن الثانى على ١٠٢ صوت ، وتلاه كاميرون وكان عدد أصواته ٥٠ صوتاً ، وحصل تشيس على ٤٩ صوتا وبيتس على ٤٨ صوتاً . وكانت هناك أصوات متفرقة لمرشحين آخرين غير ظاهرين . وفى الاقتراع الثانى زادت أصوات لنكولن تسعة وسبعين صوتا وأصبح فى هذه المرة أقل من سيوارد بثلاثة أصوات ونصف فقط ، إذ حصل على ١٨١ صوتا مقابل ١٨٤½ صوتاً لسيوارد .

وأصبحت القاعة تضج بالزئير ، وصاح المندوبون وقد نفد صبرهم ـ « نادوا الأسماء ! نادوا الأسماء ! »

وكان لابد لمن يفوز بالترشيح من أن يحصل على ٢٣٣ صوتاً . وفى الاقتراع الثالث حصل لنكولن على أربعة أصوات من ماساشوستس وصوت واحد من رودأيلند وأربعة من بنسلفانيا وتسعة من ماريلاند ـ وعندما بقى له صوت واحد ونصف لينجح همس جوزيف ميديل أحد مديرى أعمال لنكولن فى أذن دافيد كارتر رئيس مندوبى أوهايو قائلا : إذا أعطيت أصوات أوهايو إلى لنكولن فإننا نعطى تشيس أى شىء يطلبه . » وليس فى مقدورنا أن نعلم إن كانت هذه الكلمات قد أثرت على كارتر أم لا ، ولكنه وقف على قدميه بعـــد لحظة قصيرة ومزق سكون القاعة المطبق متمتماً : « أنا أقف ياسيدى الرئيس لأعلن إعطائى أربعة أصوات لمستر لنكولن بدلا من مستر تشيس »

سادالهرج القاعدة ، ورقص مؤيدو لنكولن وألقوا بقبعاتهم فى الهواء

وغنوا وصفروا ، وأسرع واحد منهم إلى مكتب البرق ليرسل البرقية التالية إلىسبرنجفيلد : « نجحنا بفضل الله . »

وقد تلقى لنكولن هذا النبأ فى مكتب جريدة « الجورنال » . وبعد وصوله ، وبعد أن صافحه مؤيدوه وربتوا على ظهره ولقبوه بالسيد الرئيس ، ودعهم قائلا : «أيها السادة ، هناك امرأة قصيرة فى منزلى من المرجح أنها تهتم بهذه البرقية أكثر منى فاسمحوا لى أن آخذها وأطلعها عليها . »

ثم سار فى الشوارع المهجورة ليطلع مارى على النبأ .

١٤ ـ الانتخاب :

استقبل المرشح الجمهوري في مكتبه المؤقت في مبنى الدولة بسبرنجفيلد سيلا لا ينقطع من الزوار ، وقد هيأ الرسامون معداتهم لرسمه ، والنحاتون لصنع تمثال لرأسه والمصورون لأخذ صورة له .

وصمم لنكولن على ألا يكتب أو يقول شيئاً عن المسائل النظرية وعلى ألا يصدر بيانات عن السياسة « لأن هؤلاء الذين لم يقرءوا أو يهتموا بما أذعته علانية من قبل ، لن يقرءوا أو يهتموا بإعادته عليهم . »

وعندما طلب منه أن يطمئن الرجال « الذين يشعرون بالقلق حقاً » بشأن الاضطراب في الجنوب ، قال إنه لا يعتقد بوجود مثل هؤلاء الرجال . فهذه هي الخدعة التي يحطم بها الجنوب كل رجل شمالي وإذا أنا استسلمت لمطالبهم فسأذهب إلى واشنطن بلا تأييد من الرجال الذين يؤيدونني الآن ، وسأكون أضعف من عود هش . إن الرجال الشرفاء سيجدون في بيان حزبنا كل شيء يمكنني أن أقوله الآن أو يريدون مني أن أقوله . »

وهذا صحيح . فقد كان هوارس جريلي ، وهو أحد محرري هذا البيان ، يعتقد أن « الرجل الذي يعارض الرق لذاته لا يمكن أن ينتخب ، ولكن يمكن انتخاب الرجل الذي ينادي بالضرائب السليمة ورسم سياسة الموانى والأنهار وسياسة لسكك حديد الباسفيك وسياسة للتوطين . » ولذلك وعد البيان الجمهوري بعمل كل الأشياء الطيبة لكل الناس الطيبين ، فرسم سياسة للضرائب تجذب أنصار الحماية الجمركية في الشرق ، وسياسة للتوطين ترضي الراغبين في امتلاك الأراضي ، وسياسة الموانى والأنهار كان لها مؤيدون في الشمال الغربي ، وسياسة لتخفيف القيود على الهجرة تظفر بتأييد الجماعات الألمانية وغيرهم من الفئات .

كان أمل الجمهوريين فى النصر يبدو مشرقا. أما الديمقراطيون فقد دخلوا المعركة الانتخابية بفريقين من المرشحين : فقد اختار جناحهم الشمالى ستيفين ا . دوجلاس ، واختار القطاع الجنوبى جون ك . بركنردج ممثل مصالح ملاك العبيد وكان هناك أيضاً فريق بيل — إيفربت وقد قدمتهما جماعة من الأحرار السابقين الذين تجاهلوا المشكلة الراهنة وقد عبأ هؤلاء المحافظون « حزب الاتحاد الدستورى » تحت شعار « دستور البلاد ، واتحاد الولايات ، وتطبيق القوانين » . وكان من المؤكد نجاح الجمهوريين ، لأن ثلاثة من المرشحين كانوا يتقاسمون الأصوات ضدهم . ففاز الجمهوريون فى جميع الولايات الشمالية باستثناء نيوجرسى التى انقسمت . ومن بين الخمس عشرة ولاية الجنوبية التى تسمح بالرق أيدت إحدى عشرة ولاية ترشيح بركنردج ، وصوتت ثلاث ولايات لصالح بيل وواحـــدة فقط وهى ميسورى لصالح دو جلاس . ونال لنكولن من الأصوات الشعبية ٤٥٢ ر٨٦٦ر١ صوتاً ، بينما نال دوجلاس ٩٥٧ر٣٧٦ر١ صوتاً ، وبركنردج ٧٨١ر٨٤٩ صوتاً . وبيل ٨٧٩ر٥٨٨ صوتاً . وبناء على هذا أصبح أبراهام لنكولن هو الرئيس القادم للولايات المتحدة .

١٥ - الرئيس المنتخب:

لقد كانت الشقة بعيدة بين الانتخابات التى تمت فى نوفمبر ، وبين التنصيب الذى كان مقرراً أن يجرى فى مارس . وكانت البلاد فى حالة ثورة ، ففى الجنوب ظهرت الرغبة فى الانسحاب من الاتحاد ، وسئل الرئيس أن يقول شيئاً يهدىء الخواطر ، ولكن لنكولن لزم الصمت ، وكتب إلى رئيس تحرير « ميسورى ريبابليكان » : « لا أستطيع أن أقول إلا ما قلته من قبل ، وهو مطبوع وفى متناول الجمهور وأرجو أن تغفر لى حين أقول : إنه إذا قامت الصحف التى واظبت من قبل على تقطيع أقوالى وتحريفها كما فعلت صحيفتكم ، إذا قامت هذه الصحف بنشر أقوالى الآن كاملة غير مشوهة على قرائها فلن يكون هناك أى خطأ فى الفهم . » وكان فيما يفضى به إلى خاصة المقربين إليه يؤكد لأصدقائه الجنوبيين ما يضمره من نوايا سلمية ، فقد أرسل إلى ألكسندر ستيفنز الذى أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الاتحاد الاستقلالى الجنوبى مذكرة لخص فيها الفرق بين الشمال والجنوب فى جملة واحدة : «أنتم تعتقدون أن الرق صواب ويجب أن ينتشر ، بينما نعتقد نحن أنه خطأ ويجب الحد منه ، وهذا فى رأيى هو منشأ الخلاف . »

ولكن المناقشات السلمية كان قد ولى زمانها منذ قال الرئيس بوكانان فى خطابه السنوى فى ديسمبر ١٨٦٠ : « بينما لا تستطيع أية ولاية قانوناً أن تنشق لا تستطيع الحكومة الفيدرالية أن تجبرها على الطاعة . » ولهذا اقترح دعوة مؤتمر دستورى يضمن الرق فى الولايات والمقاطعات ويضمن إعادة العبيد الهاربين . ولكن الجنوب لم يقبل ذلك ، ففى العشرين من ديسمبر خرجت كارولينا الجنوبية من الاتحاد وتبعها ولايات ميسيسبى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا ثم تكساس بعد قليل . واستولت

هذه الولايات على القلاع ومخازن الأسلحة التابعة للحكومة الاتحادية وأنزلت العلم ذا النجوم والخطوط .

وكان الرجال ذوو المساعى الحميدة يبحثون فى يأس عن تسوية للموقف . واقترح السناتور كريتندن إدخال عدد من التعديلات على الدستور تضمن الرق حيث يوجد ، واستمرار تجارة الرقيق ، وتعويض ملاك العبيد الهاربين ، ومد خط اتفاقية ميسورى حتى المحيط الهادى .

لقد كان من الممكن أن يتمشى لنكولن مع اقتراحات كريتندن ، ولكنه لم يوافق على امتداد الرق إلى المقاطعات الإدارية . وقد أرسل إلى لايمان ترمبول عضو مجلس الشيوخ مذكرة عن امتداد الرق قال فيها : « إذا تم ذلك فسيضيع كل ما عملناه هباء ، وسيتحتم علينا قبل مضى وقت طويل أن نعيد ما بنيناه . إن الأرض الخطرة التى يود بعض أصدقائنا أن أن يسيحوا فيها اسمها السيادة الشعبية . لا تشترك معهم ، واثبت مكانك . أزفت الآزفة ، فلتأت الآن فهذا الوقت خير من أى وقت فى المستقبل »

والحق أن لنكولن ظل يأمل فى تجنب صدام نهائى بين الشمال والجنوب ، وكان يعتقد أن المنشقين يمكن تهدئتهم بوساطة إخوانهم الباقين على الولاء ، إذ لم يزل هناك ثمانى ولايات من الولايات الخمس عشرة التى تمارس الرق أعضاء فى الاتحاد ، وإذا أمكن الاحتفاظ بهم ولم ينشقوا فمن المأمول أن تعاود الولايات المنشقة النظر فى موقفها . لقد كان الوقت عصيبا ، وقتاً احتاج إلى صبر لنكولن كله ، وكانت حجرته تعج دائماً بالسياسيين وطلاب الوظائف ، والبريد يحمل إليه كل يوم أكواماً من خطابات الإنذار والنصيحة ، طلاب الحاجات ينتظرونه خارج منزله ، ويستعملون الرصيف للنوم ، وكان مكتب المحاماة الذى يمتلكه فى شبه حصار ، وأينما حل تتبعه دائماً أفواج من الناس .

وأرسلت إليه فتاة فى الحادية عشرة من عمرها ، واسمها جريس بديل، خطاباً قالت فيه : إن منظره سيبدو أحسن كثيراً إذا هو أطلق لحيته ، « لأن وجهك نحيل جداً » . وأجابها لنكولن بقوله إنه لم يرسل شعر عارضيه قط ، « ألا تعتقدين أننى إذا بدأت أرسله الآن سيقول الناس إن هذا تكلف سخيف منى ؟ » ولكن لم يكد يمضى شهر واحد على ذلك حتى رآه الناس والشعر نابت من ذقنه ، ولم يكن قد تولى حكم الولايات المتحدة حتى ذلك الحين رئيس ملتح . لقد أوجد لنكولن طلعة جديدة لعهد جديد .

وكانت المشكلة العاجلة هى تأليف الوزارة . وبعد الدراسة والمحادثات والمفاوضات الطويلة ظهرت القائمة على النحو التالى :

وليام ه . سيوارد من نيو يورك وزيراً للخارجية .

سالمون ب . تشيس من أوهايو وزيرا للخزانة .

جنديون ويلز صحفى وديمقراطى سابق من كونتيكت وزيراً للحربية .

ومثل ولايات الحدود إدوارد بيتس وهو محام من معارضى الرق ، إذعين نائباً عاما ، ومونتجمرى بلير وهو أحد أعضاء أسرة سياسية قوية النفوذ وعين مديراً عاماً للبريد . ووفاء بالوعود التى بذلت فى أثناء المؤتمر عين كالب سميث من إنديانا وزيرا للداخلية ، وسيمون كاميرون وهو رئيس سياسى من بنسلفانيا وزيراً للحربية .

وكان لنكولن يعمل فى أثناء فراغه فى إعداد خطبة الرياسة ، وعندما اقترب الوقت أغلق على نفسه حجرة خلفية فوق متجر زوج أخته ومعه أربعة مراجع : الدستور ، وبيان أندرو جاكسون ضد تعطيل القوانين ، ورد ويبستر على هين ، وخطاب هنرى كلاى عن اقتراح التسوية الذى

قدمه عام ١٨٥٠ . وعندما انتهى من إعداد خطابه طبع منه أحد جامعى الحروف بصحيفة « الجورنال » بعض التجارب .

كان يوم الأحد ١٠ فبراير سنة ١٨٦١ هو آخر أيامه فى سبرنجفيلد . مشى إلى مكتبه الذى مارس فيه المحاماة لينهى أعماله ويودع شريكه هرندون وعندما فرغ من تسوية الأعمال المعلقة ، ألقى بنفسه فوق أريكة المكتب القديمة واستغرق فى التأمل . وسأل هرندون :

— كم من الوقت أمضينا معا يا بيلى ؟

— أكثر من ستة عشر عاماً .

— ولم نختصم فى هذه المدة مرة واحدة .

— بلى ، لم نختصم قط .

وكان لنكولن مبتهجاً وهو يستذكر الماضى ، ثم جمع حزمة من الكتب والأوراق وهم بالرحيل . وسأل هرندون ألا يغير اللافتة الموجودة فى أسفل السلم . قال بصوت منخفض : دعها مكانها معلقة ولا تعكر صفوها . وأرجو أن توضح لزبائننا أن انتخاب الرئيس لا يؤثر على شركة لنكولن وهرندون ، وإذا طال بى الأجل فسأعود بعد وقت ، وإذ ذاك سنستمر فى المحاماة كأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق . »

وفى بكرة اليوم التالى كانت محطة السكة الحديدية غاصة بالرجال والنساء الذين جاءوا ليودعوه . وعندما أشرف قطاره على المسير ظهر لنكولن فى مؤخرة عربته وألقى هذه الكلمات :

« يا أصدقائى . إن كل من لا يجد نفسه فى موقفى لا يستطيع أن يقدر شعورى بالحزن لهذا الفراق . إنى مدين بكل شىء لهذا المكان ولعطف ناسه ، فهنا عشت ربع قرن من الزمان ، هنا عبرت شبابى إلى شيخوختى ، وهنا ولد أبنائى ودفن واحد منهم . إنى أغادركم ولا علم لى متى أعود ، وقد لا أعود .

وأمامى مهمة أكبر من المهمة التى وقعت على كاهل واشنطن ، ولن أستطيع النجاح إلا بتأييد من تلك العناية الإلهية التى كانت دائماً معه ، ولا يمكن أن أفشل ما دامت معى تلك العناية . فلنعتمد على من يقدر أن يذهب معى ويبقى معكم ويكون فى كل مكان أبداً ، ولنرج واثقين أن تنصلح الأمور . إنى أستودعكم الله الذى أضرع إليه أن يرعاكم كما أرجو أن تضرعوا إليه فى صلواتكم أن يرعانى . »

ثم تحرك القطار تاركا وراءه الأصدقاء والجيران والمنزل وذكريات الصبا .

١٦ — خطبة الرياسة:

استغرقت الرحلة إلى واشنطون اثنى عشر يوما ، وكان يخطب كلما وقف القطار ، وفى كل محطة كان يناشد الناس أن يعملوا ما فى وسعهم لصيانة الاتحاد . وقد قال فى إنديانا بوليس : « لو ضاع اتحاد هذه الولايات وضاعت حريات هذا الشعب فقد لا يعنى ذلك الشىء الكثير لأى رجل واحد فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه يعنى الكثير الثلاثين مليوناً الذين يسكنون هذه الولايات المتحدة ولأعقابهم على طول الزمن إن مهمتكم هى أن تنهضوا وتصونوا الاتحاد والحرية من أجلكم أنتم لا من أجلى . وإنى لأرغب فى أن يصانا وفقا للدستور . »

ولما وصل الرئيس المنتخب إلى فيلادلفيا حذره ألان بنكرتون وهو رئيس وكالة خاصة للمخابرات السرية من مؤامرة تدبر لاغتياله ، ورجاه ن يبتعد عن مدينة بلتيمور حيث يترصد له المجرمون . غير أن لنكولن لم يكن ليستمع إلى ذلك التحذير . ولكن عندما وصل تقرير آخر - وكان من واشنطون هذه المرة - وافق على التغيير الذى أدخل على برنامج رحلته ، فكان عليه أن يتسلل من هاريسبرج يصحبه صديقه وارد هيل لامون ولا أحد غيره ، وأن يلبس قبعة منخفضة ومعطفاً قديما حتى لا يعرفه أحد . على أن أحد المخبرين الصحفيين أضاف الكثير إلى هذه الحادثة ، وبذلك أظهرت الصحف لنكولن بمظهر الجبان الذى اضطر أن يتنكر مخافة الاغتيال .

وقد وصلت العربة الخاصة إلى بلتيمور فى الصباح الباكر ، وكان يجرها حصان فى الشوارع من محطة إلى محطة . وما إن وصل الركب إلى العاصمة حتى أبرق بنكرتون الصغير فى حماسته بالشفرة : « البرقوق (يعنى لنكولن) وصل إلينا بسلام هذا الصباح مع البندق (يعنى لامون) . »

وعلى أثر وصول لنكولن إلى واشنطن قابل أعضاء « مؤتمر السلام » وقال للمندوبين الذين حاولوا إعادة الاتحاد إلى أمة قد انقسمت على نفسها : « إن طريقى واضح ، ولست أشك فى السبيل الذى سأسلكه . ما رأيكم فى أن نوقف المناقشات الآن كلنا ونحاول تجربة الانصياع للدستور والقوانين ؟ ألستم معى فى أن ذلك سيكون هو الحل ؟ »

وكان جو يوم التنصيب مشابهاً لنفسية الأمة . إذ تعاقب الصحو والسحب الداكنة ، وراجت إشاعة تقول إن لنكولن لن يؤدى اليمين ، وإن المجرمين سيقتلونه قبل ذلك بوقت طويل . وكان القواد العسكريون فى العاصمة فى يقظة دائمة ، ووقف رجال مسلحون على أسطح المنازل على طول شارع بنسلفانيا يراقبون نوافذ المساكن ، وكانت الأوامر الصادرة إليهم هى : « أطلقوا النار على هذه النوافذ متى وجدت أية محاولة لإطلاق النار منها على عربة الرئيس .

وفى الظهيرة زار الرئيس جيمس بوكانان الرئيس المنتخب فى فندقه ، ثم ركبا معاً فى شارع بنسلفانيا ، وبعد أن شهد لنكولن نائبه هانيبال هاملين يؤدى القسم تقدم إلى الرواق محروساً حيث قام صديقه القديم إدوارد ديكنسون بيكر بتقديمه .

بحث لنكولن عن مكان يضع فيه قبعته اللامعة الجديدة ، ويروى أن ستيفن ا . دوجلاس تقدم وحملها عنه . وبعد أن أخرج من جيبه كومة من الأوراق المطبوعة كانت هى تجارب خطابه التى قام جامع الحروف فى سبرنجفيلد بجمعها له سرا ، والتى أدخل عليها بعد ذلك تعديلات كثيرة بخطيده - ثبت منظاره على عينيه وبدأ يلقى خطابه : « يبدو أن هناك شيئا من الشك بين سكان الولايات الجنوبية فى أن مجىء حكومة من الجمهوريين معناه أن تصبح ممتلكاتهم وسلامهم وأمنهم الشخصى فى خطر » ولكن فى رأيه لم يكن هناك أى سبب معقول يبرر هذا الشك » : إننى

لا أرمى إلى أن أتدخل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى نظام الرق فى الولايات التى يوجد فيها . فأنا أعتقد أنه ليس لى الحق القانونى فى أن أفعل ذلك ، كما أننى لا أميل إلى أن أفعله . » وكى يزيل مخاوف الجنوبيين أعطى وعداً قاطعا بأنه سيلتزم نص قانون العبيد الهاربين الذى صيغ صياغة واضحة فى الدستور ، كما صيغت كل مواده ، وذكر مستمعيه بأن الدستور ظهر إلى الوجود ليشكل اتحاداً أكثر كمالا ، « ولكن إذا أصبح هدم الاتحاد على يد ولاية أو بعض الولايات عملا قانونياً فإن الاتحاد سيكون أقل كمالا من ذى قبل ، وهذا مناقض للدستور ، وإذن فهو فاسد . »

وصرح بأن الاتحاد لم يفصم ، وأن قوانين الاتحاد ستطبق بأمانة فى جميع الولايات . « وإنى حينما أفعل ذلك إنما أؤدى واجباً بسيطاً من جانبى ، وسأظل أؤديه مادام ذلك ممكنا ، إلا أن يمنع عنى سادتى الشرعيون وهم الشعب الأمريكى الوسائل اللازمة لذلك ، أو يأمروا بعكسه بطريقة ملزمة » .

ثم ناقش ذلك قائلا : « ولأداء هذه المهمة لا يستدعى الأمر إراقة الدماء أو العنف ، ولن يكون هناك شىء من ذلك إلا إذا فرض فرضاً على السلطة العامة . إن السلطة التى منحت لى ستستخدم لصيانة الممتلكات والأماكن التابعة للحكومة ، واحتلالها ، وتملكها ، وجمع الضرائب والعوائد . أما فى غير ما يلزم لهذه الأغراض فلن يكون ثمة غزو أو استعمال للقوة ضد الناس أو بين الناس أينما كانوا . »

ووجه حديثه إلى « أولئك الذين يحبون الاتحاد حقا » فأكد أن « الفكرة الرئيسية فى الانسحاب من الاتحاد هى جوهر الفوضى » ، وأن المشكلة فى صميمها هى « أن قسماً من بلادنا يعتقد أن الرق حق وأنه يجب أن ينتشر ، بينما يعتقد القسم الآخر أنه خطأ ويجب ألا ينتشر » .

ولكنه يعتقد « أننا من الناحية المادية لا يمكن أن ننفصل . فنحن لانستطيع أن نعزل كلا من القسمين عن الآخر ، ولا أن نبنى بينهما سورا لا يمكن اجتيازه . . . إن هذه البلاد ونظامها ملك للشعب الذى يسكنها ، وعندما يضيقون بحكومتهم القائمة فإنهم يستطيعون أن يمارسوا حقهم الدستورى فى تعديلها ، أو حقهم الثورى فى تمزيقها وخلعها ، ثم ناشدالبلاد أن تفكر فى الموضوع جيداً وبهدوء ، وقال : « لن يضيع شىء ثمين إذا فكرنا مليا . »

ثم وجه حديثه فى صراحة إلى الجنوب قائلا : « بنى وطنى الساخطين ! فى أيديكم لا فى يدى هذه القضية الخطرة : قضية الحرب الإهلية . إن الحكومة لن تهاجمكم ، ولن يكون ثمة صراع إلا إذا كنتم أنتم المعتدين . إنكم لم تقسموا اليمين أمام السماء لهدم الحكومة ، ولكنى أقسمت مخلصا غاية الإخلاص أن أحفظها وأحميها وأدافع عنها . »

لقد كان هذا هو ختام خطابه فى الأصل ، ولكن عندما اقترح وليم سيوارد فقرة ختامية ملطفة أعاد لنكولن صياغة عبارات سيوارد الباردة فى نثر جميل شبيه بأسلوب الإنجيل : « إننى أكره أن أختم خطابى بهذا . فنحن لسنا أعداء بل أصدقاء ، ويجب ألا نكون أعداء . وإذا كان الغضب قد أوهى عرى المودة بيننا فيجب ألا يفصمها . إن أوتار الذكرى الخفية التى تمتد من كل ميدان قتال ، ومن قبر كل وطنى إلى كل قلب نابض بالحياة فى جميع أرجاء هذه الأرض الرحيبة سوف ترنم نغم الاتحاد حينما تلمس من جديد ، ولا شك أن ملائكة الخير فى طبيعتنا سوف يلمسونها . »

ثم أدى القسم ، وارتفع الهتاف من حناجر الألوف للرئيس السادس عشر للولايات المتحدة .

القسم الثانى

١ — أوصافه

لقد وصفه شريكه فى المحاماة بيلى هرندون الذى لاحظه خلال الأربعة والعشرين عاماً التى قضاها فى سبرنجفيلد على النحو التالى :

« كان طول المستر لنكولن ست أقدام وأربع بوصات ، وعندما غادر مدينته إلى واشنطون كان عمره واحداً وخمسين عاماً ، وكان بصحة جيدة ، لم يخط الشيب رأسه أو لم يكد يخطه ، نحيلا صلباً ، مفتول العضلات ، بارز العظام ، رقيق ما بين الصدر والظهر ، ضيق الكتفين . حينما يقف يميل إلى الأمام بحيث يمكن أن يقال إن فى ظهره انحناء ، وفى بنيته استعدادا للإصابة بالسل وكان وزنه العادى مائة وثمانين رطلا ، ونظامه ، أو بالأحرى بنيته ووظائفه الجسمية ، أميل إلى البطء ، إذ كان على دمه أن يجرى مسافة طويلة من قلبه إلى أطراف هيكله ، وعلى قوته العصبية أن تسير خلال أرض جافة مسافة طويلة قبل أن تستجيب عضلاته لإرادته . وكانت بنيته فضفاضة مرنة ، وجثمانه منكمشاً ومجعداً ، وجلده أسمر ، وشعره داكنا ، وكان يبدو كأن شدهته نازلة . لقد كان الرجل فى مجموعه - جسما وعقلا - يعمل ببطء كما لو كان آلة فى حاجة إلى تزييت . على أنه من الناحية الجثمانية كان شديد الأيد ، يستطيع بسهولة أن يرفع أربعمائة رطل ، واستطاع مرة أن يرفع ستمائة رطل . وكان عقله كجسمه ، يعمل ببطء ولكن فى قوة . ومن هنا لم يكن الاستهلاك الجسمى أو العقلى ينال منه كثيراً ، وقد أعطته هذه الخاصية فى تكوينه مزايا كبيرة على الرجال الآخرين فى الحياة العامة . .

وكان إذا مشى يتحرك فى حذر ولكن فى ثبات ، وذراعاه الطويلتان

ويداه الكبيرتان تتأرجح بجانبه كان يمشى بخطى منظمة إذكان الجانبان الداخليان لقدميه متوازيين ، ويضع قدمه كلها مسطحة على الأرض دفعة واحدة غير مرتكز على العقب ، وبنفس الطريقة كان يرفع القدم دفعة واحدة غير معتمدعلى الإصبع الكبير . ولهذالم يكن فى مشيته وثب بل كانت متموجة تجلب التعب والإجهاد والألم لجميع أجزاء جسمه علوا وسفلا ، فلا ينحصر الإجهاد فى عضو بعينه . وكان أول مايقع فى نفس من لا يعرفه أو من لم يلاحظه عن قرب هو أن مشيته تنم عن الحنكة والدهاء وأنه رجل مخادع ، ولكنها فى الحقيقة كانت مشية الحذر والثبات . وعندما كان يجلس على كرسى من الكراسى العادية لم يكن يبدو أطول من الرجال العاديين ولكن كانت ساقاه وذراعاه طويلة بدرجة غير عادية ولا طبيعية ، ولم تكن تتناسب مع باقى جسمه ؛ فلم يكن يبدو شامخاً فوق الرجال الآخرين إلا حين يقف .

وكان رأس المستر لنكولن طويلا وعالياً من قاعدة الجمجمة ومن الحاجبين ، منحدراً إلى الخلف بحيث تصعد جبهته بزاوية صغيرة ، أشبه بجبهة كلاى ، وعلى عكس جبهة وبستر التى كانت عمودية تقريباً . وكان مقاس قبعته كما أخذه بائع القبعات سبع بوصات وثمن البوصة ، لأن عرض رأسه من الأذن إلى الأذن كان ست بوصات ونصفاً ومن الأمام إلى مؤخرة الجمجمة ثمانى بوصات ، وعلى هذا فمقاسها لم يكن أقل من المقاس المتوسط . وكانت جبهته ضيقة لكنها عالية ، وشعره داكناً أقرب إلى السواد ، يتهدل حيث تتركه أصابعه أو تلقيه الرياح ، ومصففاً كيفما اتفق ، ووجنتاه عاليتين حادتين بارزتين ، وفكاه طويلين منفرجين ، وذقنه حاداً وأنفه كبيراً طويلا مفلطحاً ملتوياً قليلا نحو العين اليمنى ، وذقنه حاداً ، ومقوساً إلى أعلى ، وحاجباه بارزين بروز الصخرة من الجبل . وكان وجهه الطويل الشاحب جافاً ومجعداً ، تتناثر عليه الشعرات هنا وهناك ، وخداه

متهدلين ، وأذناه كبيرتين تبرزان من رأسه بزاوية قائمة تقريباً ، وكان ذلك راجعاً إلى القبعات الثقيلة من جهة ، وإلى الطبيعة من جهة أخرى . وكانت شفته السفلى غليظة مدلاة مائلة إلى أسفل ، بينما ذقنه يتجه إلى أعلى . وكان عنقه معتدلا صلباً ، ورأسه متزناً فوقه ، وثمة الشامة الوحيدة على الخد الأيمن ، وتفاحة آدم على الحلقوم .

« هكذا كانت وقفة أبراهام لنكولن ومشيته وحركته وشكله . ولم يكن رجلا وسيماً بأية حال ، ولكنه لم يكن دميما . وكان رجل أسرة لا يعنى بمظهره ، بل كان بسيطاً فى شكله وفى حركاته ، ولم يكن به صلف أو تكلف أو ما يسمى بالوقار . لقد كان يبدو بسيطا فى مشيته وهيئته ، وكان رجلا حزين المنظر ، يقطر منه الأسى حيث سار . »

على أن جون ج . نيكولاى سكرتير لنكولن الذى تأمل فى قسمات الرئيس أضاف هذه الملاحظات إلى الصورة القلمية التى رسمها هرندون . فقد كتب يقول :

« إن المنظر — إذا كنا نتحدث عن لنكولن — يعتمد إلى حد كبير على حالته النفسية . فهيكل ملامحه الكبير كان يتأثر كثيرا بالعواطف التى تسيطر عليه . إن أرق لمسة للرسام غالبا ما تغير تعبير الصورة ؛ وإن عدم قدرة الفنان على إيجاد اللمسة البارعة التى تحتاج إليها ليودى بأحلامه . وفى القسمات وذات الخطوط القوية والكتل الضخمة كقسمات لنكولن يؤدى رفع حاجب أو تقويس شفة أو ومضة عين أو حركة فى العضلات البارزة إلى تعبير أوسع كثيراً مما نجده فى القسمات الدائرية الثابتة . ولقد كانت ملامح لنكولن مصدر يأس لكل فنان حاول رسم صورته . . . كان الفن التصويرى عاجزاً أمام وجه يمر خلال ألف مستوى دقيق من مستويات الخط والحدود ، والأضواء والظلال ، ولمعان العين ، وتقويس الشفة ، لتظهر عليه درجات كثيرة من التعبير تتفاوت بين الحزن

والسرور ، وبين بهجة الضحك الصاخب وتلك النظرة الجادة البعيدة التى رأت بحدس وإلهام منظر الحرب المخيف ، واستمعت إلى صرخة القهر والألم . إن هناك صوراً كثيرة للنكولن ، ولكن لا يوجد له رسم واحد . »

وقد وافق الشاعر والت ويتمان على رأى نيكولاى حين قال : « لم يستطع فنان واحد التقاط ما ارتسم على وجه ذلك الرجل من التعبيرات العميقة ، وإن كانت خفية وغير مباشرة . لقد التقطوا السطح فقط . ولكن هناك شيئاً آخر فاتهم . . . لقد كنا فى حاجة إلى أحد الرسامين الكبار ممن عاشوا منذ قرنين أو ثلاثة قرون . »

ولخص جوستاف كيرنر هذه الجملة الصغيرة . «هناك شيء ما فى هذا الرجل وفى هذا الوجه لا يمكن سبر أغواره . »

٢ ــ قلعة سمتر :

وصل إلى مكتب الرئيس لنكولن بعد تنصيبه بيوم واحد نذير خطير. جاء ذلك النذير من الميجور روبرت أندرسون قائد قلعة سمتر، وكانت آخر قلعة فى أيدى الحكومة الاتحادية بميناء تشارلستون. فقد أرسل أندرسون يقول إن مؤنه تنقص وإنه إذا لم يمون خلال ستة أسابيع فسيضطر إلى إخلاء القلعة.

وهكذا ووجه الرئيس الجديد فى مستهل حكمه باتخاذ قرار خطير، قرار يتوقف عليه سلام البلاد. لقد وعد فى خطاب تنصيبه أن «يصون ويحتل ويتملك» الأماكن والممتلكات التابعة للحكومة الاتحادية، ولكنه إن أرسل المؤن إلى قلعة سمتر فإن الولايات السبعة المنشقة قد تعارض ذلك بقوة السلاح، وإن لم يرسل المؤن إلى القلعة فإن ذلك سيثبت أن الحكومة الجديدة ليست لديها الشجاعة على العمل بما تؤمن به.

أصبحت قلعة سمتر رمزاً. فبالنسبة للشمال كان امتلاك القلعة يعنى المحافظة على سلطة الاتحاد، وبالنسبة للجنوب كانت رفرفة العلم ذى النجوم والخطوط داخل حدود ولاية منشقة تعنى الذل والعار.

وقد أدرك لنكولن أن الإقدام على عمل حاسم فى قلعة سمتر قد يدفع أقصى الجنوب إلى الحرب، ومتى بدأت الأعمال الحربية فقد تخرج الولايات الأخرى التى تأخذ بنظام الرق والتى بقيت على ولائها للاتحاد، ولهذا حاول أن يكسب الوقت فطلب مشورة الوزارة والسلطات الحربية والبحرية العليا وبدأ تردده كما لو كان ضعفاً، واتهمه رجال الصحف بالمضى فى غير طريق معروف وبدون سياسة ثابتة.

وقد قدم وزير الخارجية بعض «أفكار تترك لتقدير الرئيس» أشار فيها بأنه

« مهما تكن السياسة التى نتبعها فيجب أن تنفذ بعزم . ومن أجل ذلك يجب أن يعهد لأحد الأشخاص أمر متابعتها وتوجيهها دون توقف . فإما أن يتولى الرئيس ذلك بنفسه ولا ينقطع عن بذل الجهد فيه ، وإما أن يفوضه لبعض أعضاء وزارته . » وقد نبـــه الرئيس سيوارد إلى أنه إذا كان هناك شيء يجب عمله « فيجب أن أعمله أنا » ، وأنه لن يتخلى عن مسئولياته .

وكان دائم القلق بشأن الموقف فى فرجينيا فإن مؤتمر ولاية فرجينيا ، وإن كان موالياً للاتحاد ، فإنه امتنع عن نض دورته طالما بقيت الحكومة الاتحادية متشددة مع شقيقتها ولاية كارولينا الجنوبية . وكان لنكولن يأمل أن يستبقى ولاية فرجينيا فى الاتحاد إذا تمكن من حل مشكلة سمتر بسلام ، وقد قال لأحد أنصار الاتحاد بالمؤتمر : « إذا ضمنت لى ولاية فرجينيا فإنى سأسحب القوات » وسمع يقول : « إن مبادلة ولاية بقلعة ليست تجارة خاسرة » ، ولكن لم يظهر مايبشر بذلك .

وبالرغم من تصريحه المؤكد الذى ألقاه فى خطبة تنصيبه فقد فكر جاداً فى أن يتخلى عن قلعة سمتر . ولكى يجعل ذلك مستساغاً لدى الرأى العام فى الشمال ويحافظ على هيبة الشمال عزم على إمداد حامية قلعة پيكنز المطلة على ميناء پنشاكولا فى فلوريدا ، ومن ثم أصدر أمرا فى الأسبوع الأول من أبريل بأن تجهز حملتان : إحداهما إلى فلوريدا والأخرى إلى كارولينا الجنوبية على أن تسلم قلعة سمتر إذا نجحت حملة پركنز . ولكن عندما رفض القائد البحرى التابع للاتحاد الاستقلالى الجنوبى فى پنشاكولا أن يسمح بنزول قوات الاتحاد فى القلعة لم يجد لنكولن مفراً من تعزيز قلعة سمتر .

وأخطر حاكم كارولينا الجنوبية بعزم الحكومة الاتحادية على إمداد قلعة سمتر ، فرد بأنه يجب ألا ترسل قوات إضافية أو أسلحة إلى القلعة ، وبلغ الحاكم الرسالة إلى حكومة الاتحاد الاستقلالى الجنوبى فى ألاباما فأجابت بأنها لن تسمح بعد الآن بوجود قوات تابعة للاتحاد الفدرالى فى أراضى ولاية انسحبت من الاتحاد ، وطلبت تسليم قلعة سمتر فورا . ولما لم يتم ذلك قامت بطاريات تشارلستون

بإطلاق النيران على القلعة فى فجر الثانى عشر من أبريل عام ١٨٦١ . لقد أصبحت المعركة الدموية بين الأشقاء التى طالما دعا لنكولن إلى تجنبها أمراً واقعاً ومحا اندلاع الحرب تردد لنكولن ، فلم يعد بعد ذلك متوقفاً ولا متأرجحاً ، وأصدر بيانا أعلن فيه أنه لما كانت قوانين البلاد تلقى معارضة فى الولايات السبعة المنشقة « بتجمعات أقوى من أن تكبح بطريق الإجراءات القضائية » فإنه مضطر إلى أن يطلب من ولايات الاتحاد خمسة وسبعين ألف مقاتل من حرسها الوطنى « للقضاء على التجمعات المذكورة » كان لا بد من مواجهة القوة بالقوة ، فقد كان تحدى الجنوب للسلطة الاتحادية أمرا لا يمكن السكوت عليه .

وبعد ذلك بأسابيع قليلة أوضح الرئيس فى أول رسالة له إلى الكونجرس : « أن الهجوم على القوات القليلة فى قلعة سمتر لم يكن بحال عملا من أعمال الدفاع عن النفس من جانب المهاجمين ، فهم يعلمون جيداً أن الحامية التى بالقلعة لم تكن تستطيع مطلقاً أن تعتدى عليهم . ولقــد كانوا يعلمون — إذ أنهم أبلغوا ذلك بوضوح — أن إعطاء الخبز لرجال الحامية القليلين الشجعان الذين يقاسون الجوع كان كل ما يراد عمله فى تلك المناسبة ، إلا إذا استدعوا هم بمقاومتهم لذلك العمل الصغير أعمالا أكبر . إن اللوم لا يمكن أن يقع على الشمال ، ولكن الجنوب هو الذى يجب عليه أن يتحمل الوزر . لقد كانوا يعلمون أن هذه الحكومة راغبة فى إبقاء الحامية بالقلعة لا لمهاجمتهم بل لمجرد الاحتفاظ بالملكية الظاهرة ، ومن ثم صيانة الاتحاد من الانحلال الفعلى السريع ، تاركين كما ذكرت هنا من قبل أمر التسوية النهائية للوقت والمناقشة وصناديق الانتخاب . وهم قد هاجموا القلعة ودمروها لعكس هذا الغرض تماما ، أى لطرد السلطة الظاهرة للحكومة الاتحادية ، ومن ثم إجبار الاتحاد على الانحلال السريع » .

كانت حجة لنكولن أن إطلاق النار على العلم فى قلعة سمتر أكره البلاد على أن تواجه قضية واضحة : فإما الانحلال السريع ، وإما الدماء . « وهذه

القضية تتضمن أكثر من مصير هذه الولايات المتحدة . إنها تعرض مسألة على جميع الأسرة البشرية وهى : هل يمكن لجمهورية دستورية أو لديمقراطية ، وهى حكومة الشعب للشعب ، أن تحافظ على وحدة أراضيها من أعدائها الأهليين ؟ إنها تعرض مسألة ما إذا كان الأفراد الساخطون ، وعددهم قليل لا يسمح بتوجيه الحكومة حسب مقتضى القانون فى أى حالة من الحالات ، يستطيعون دائماً بادعاءاتهم أو قسرا ودون ادعاء أن يحطموا حكومتهم ، وبذلك يقضون على مبدأ الحكومة الحرة فى هذه الأرض ، إنها تضطرنا إلى أن نتساءل : هل هناك فى جميع الجمهوريات هذا الضعف الكامن القاتل ؟ وهل يجب على الحكومة بالضرورة أن تكون إما قوية بحيث لا تسمح بحريات شعبها أو ضعيفة بحيث لا تستطيع حماية بقائها ؟

وهكذا فإن « النظر إلى القضية لم يترك مجالا للاختيار سوى استنهاض قوة الحكومة الحربية وبذلك تقاوم القوة التى تستخدم لهدمها بقوة تصونها » .

وقال فى كآبة : « يجب أن نبت فى هده المسألة الآن وهى : هل يجوز للأقلية فى حكومة حرة أن تحطم الحكومة عندما ترغب فى ذلك ؟ فإن فشلنا فسيكون ذلك دليلا كبيراً على أن الناس عاجزون عن حكم أنفسهم . » .

٣ — الحرب :

بدأت الحرب كما تبدأ جميع الحروب بالتلويح بالأعلام والحماسة والأناشيد ، وكما هي الحال دائماً كان كل فريق واثقاً ثقة مطلقة بالنصر وكما هي الحال دائماً كان كل فريق يباهى بقوته ويهزأ بضعف الفريق المعادى ، وكما هي الحال دائماً كان كل فريق مؤمناً بعدالة قضيته .

ولكن الشمال والجنوب لم يكونا متساويين فى القوة ، فإن سكان الولايات الاثنين والعشرين الموالية للاتحاد كانوا يبلغون عشرين مليونا على وجه التقريب ، وكان سكان الإحدى عشرة المنشقة يبلغ ستة ملايين عدا العبيد (بعد دعوة لنكولن لإرسال الجنود من الولايات للقوات انضمت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وأركنساس وتينسى إلى الاتحاد الاستقلالى) ؛ وكانت صناعة الشمال وموارده وقوته العاملة أكبر بكثير من الجنوب ، ولكن الجنوب كان يفوق الشمال من حيث الحمية الحربية والقيادة العسكرية ، وكان أهل الجنوب ؛ جنوداً أكفاء يعرفون كيف يطلقون البنادق وكيف يركبون الخيل ، إذ كانوا ملتصقين بالأرض صيادين وزراعا ، ولم يكونوا صناعاً أو عمالا أو ساكنى مدن كمعظم جنود الشمال .

وبالنسبة لأهل الجنوب كان الغرض من المعركة يبدو واضحاً ، إذ كانوا يؤمنون بأن لكل ولاية الحق فى الانفصال ، وإذا ما اتخذ هذا القرار فليس للحكومة الاتحادية سلطة التدخل . وبالنسبة لأهل الجنوب كان الشمال هو المعتدى ، ولم يدخل الجنوب الحرب إلا ليصون حريته واستقلاله من سيطرة الشماليين ، وللمحافظة على طريقته فى الحياة .

ولكن غرض الشمال لم يكن من السهل جعله مفهوماً . فالأفكار دائماً أصعب فى الشرح . وقد دخل الشمال المعركة لا لإلغاء الرق وإنما من أجل

المبدأ الذى ينادى بأن الأقلية فى الحكومة الحرة ليس لها الحق فى الإطاحة بالحكومة إن هى أرادت . وقد أدى نشوب الحرب إلى مضاعفة متاعب الرئيس ، إذ زادت واجباته ، فكان عليه أن يكوّن جيشاً : وكان للشمال ستة عشر ألف رجل مسلح لا غير ، من بينهم ثلاثة آلاف رجل فقط يمكن إرسالهم للخدمة فى الشرق ، وقد عمل دون كلل لتوحيد جميع الأفكار المختلفة فى الشمال ، والمحافظة على ولايات الحدود المشكوك فى ولائها داخل الاتحاد . هذه الولايات هى كنتكى وميسورى وديلاوير . لقد كان عملا جبارا استلزم كل طاقته من الصبر والنشاط والمهارة .

وكان تنظيم البلاد للحرب وإبقاء السياسيين الساخطين فى الصف ومراقبة الأصدقاء والأعداء بعين ساهرة كل ذلك كان يستلزم منه العمل طوال ساعات يقظته . ومع هذا فقد كان معظم وقته مشغولا بطلاب المناصب وفى كل يوم كانت أرض القصر التنفيذى وأروقته وسلالمه تعج بمقدمى طلبات الاستخدام ، وكانت تصدر المذكرات تلو المذكرات إلى أعضاء الوزارة ، إحداها بتوصية بتعيين قائد لفرمونت والأخرى بتعيين مندوب إلى قبيلة يونكا بداكوتا وثالثة بتعيين قنصل عام فى كندا — سيل منهمر من المذكرات كان يكتبه الرئيس بتعيين قضاة ونظار بريد وقناصل من المخلصين ، وعندما لمح أحد الأصدقاء علامات الكآبة على وجه لنكولن ، سأله إن كان قد بلغته أنباء سيئة من الجيش ؟ فأجابه قائلا : « لا ، ليت المسألة مسألة الجيش ، ولكنها مســـألة مكتب البريد فى براونزفيل بميسورى »

بعد إطلاق النار على قلعة سمتر صدرت أوامر إلى القوات بالتوجه إلى العاصمة غير المحمية ، وكانت واشنطون فى قلق ، فقد كان للاتحاد الاستقلالى خمسة عشر ألف رجل فى الإسكندرية القريبة من العاصمة ، وقد قطع أهالى ماريلاند المنشقون خطوط السكك الحديدية والمواصلات التلغرافية ، وبذلك أصبحت العاصمة معزولة . ومضت أيام دون أن تظهر

قوات ماساشوسيتس وورود أيلند ونيويورك التى كانت فى طريقها إلى العاصمة ، وقد انفجر لنكولن غيظاً وهو يراقب قدومهم بمنظار مقرب قائلا : « لماذا لا يحضرون ! لماذا لم يحضروا ! ؟

وفى بلتيمور هاجم المؤيدون للانشقاق فرقة ماساشوستس السادسة بينما كانت تتقدم داخل المدينة ، فقتل أربعة من رجالها وجرح الكثيرون ، وبقيت الجثث على أرض الشارع . وعندما وصلت الفرقة إلى واشنطون وجاء الجرحى ليحيوا الرئيس قال لهم لنكولن فى مرارة : « بدأت أعتقد أن الشمال غير موجود . فالفرقة السابعة خرافة ، وورود أيلند خرافة أخرى. أنتم وحدكم الشىء الحقيقى . » وأجاب لنكولن فى غضب على وفد من أهل بلتيمور جاءوا يطلبون ألا تسير قوات الاتحاد مرة أخرى داخل مدينتهم: « أنتم أيها السادة تأتون إلى هنا تطلبون السلم بأى شروط ، ولكننى لم أسمع منكم كلمة واحدة تدينون بها أولئك الذين يحاربوننا . إنكم تبدون الجزع لإراقة الدماء ، ومع هذا تلقون بقشة فى طريق أولئك الذين يتجمعون فى فرجينيا وغيرها ليستولوا على هذه المدينة . إن الثوار يهاجمون قلعة سمتر، ومواطنوكم يهاجمون القوات التى أرسلت لحماية الحكومة والأرواح والممتلكات فى واشنطون ، ومع هذا كله تريدون منى أن أحنث بقسمى وأسلم الحكومة دون ضربة واحدة .

ليس فى ذلك شىء من أخلاق واشنطون ، ليس فى ذلك شىء من أخلاق جاكسون[1] ليس فى ذلك شىء من الرجولة أو الشرف . ومع أنه ليس لدى رغبة فى غزو الجنوب فيجب أن يكون لدى قوات تحمى العاصمة ، وهى من الناحية الجغرافية محاطة بأرض ماريلاند ، ومن الناحية

---

(١) أندرو جاكسون ، تولى رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية من سنة ١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٧ . يعد من أعلام الديموقراطية الأمريكية لمقاومة الاحتكار ولنمو حركة الإصلاح الاجتماعى عهده . (فى المراجع)

الرياضية لا بد لرجالنا أن يمروا بأرضها إن رجالنا ليسوا جرذانا فيحفروا تحت الأرض ، ولا طيوراً فيطيروا فى الهواء ، وليس هناك طريق سوى أن يمروا ببلدكم ، وهذا مالا بد أن يفعلوه .

وفى أوائل الصيف كان هناك ٣٥٠٠٠ رجل من القوات المتحدة يتدربون تحت قيادة الجنرال إروين ماكدول ، وكانت الصحف والسياسيون ، وقد فرغ صبرهم ، يستحثون : « إلى رتشموند . » وكانت الولايات الحرة متعطشة للعمل ، تطالب بالهجوم معتقدة أن الثورة ستنهار من أول ضربة . وحين اشتد الضغط على لنكولن من كل جانب ، وأدرك أن الصدام سيقوى وحدة الشمال ، أصدر أمره إلى الجنرال إروين ماكدول بالسير لملاقاة رجال الاتحاد الاستقلالى . وفى يوم الأحد ٢١ يولية عام ١٨٦١ ، وكان يوما قائظاً ، عبرت القوات المتحدة خليج « بل رَن » الصغير ، وهاجمت قوات الاتحاد الاستقلالى فى مانَسّاس على مسافة تقرب من خمسة عشر ميلا إلى الجنوب الغربى من واشنطون . . . وفى البداية كانت الغلبة للشمال ، ولكن حين انضم الجنرال جونستون إلى القوات الرئيسية الجنوبية التى كان يقودها بوريجارد قام الجنوبيون بهجوم مضاد ، وهربت القوات المتحدة فى ذعر

وظل الرئيس ساهراً طوال تلك الليلة فى قاعة مجلس الوزراء يستمع إلى قصص شهود العيان الذين ذهبوا إلى الميدان فى عرباتهم ليشاهدوا انتصار القوات المتحدة ففاجأهم منظر الهزيمة .

وقد أوضحت التقارير فى اليوم التالى أن النتيجة لم تكن فادحة كما كان يظن من قبل ، إذ أعلنت وزارة الحربية « أن خسارتنا أقل بكثير مما كان يظن أولا ، وقد وصلت القوات إلى القلاع فى حالة أحسن بكثير مما كنا نتوقع . » وكانت التحصينات على الشاطىء الجنوبى من نهر بوتوماك فى حالة جيدة ومجهزة تجهيزاً كافياً بالرجال ، وبدا من الواضح أن الانفصاليين

لا يمكنهم متابعة انتصارهم . وقد قال الجنرال جونستون بعد ذلك : « إنه جيشنا قد شتته الانتصار أكثر بما شتت الهزيمة جيش الولايات المتحدة . » وصرح ستونوول جاكسون بأنه لو استطاع الحصول على عشرة آلاف مقاتل جدد « لأصبحت فى واشنطون اليوم » . ولكن . لم يكن هناك عشرة آلاف مقاتل جـــدد لا فى الحكومة المتحدة ولا فى الاتحاد الاستقلالى .

كانت هزيمة الشمال فى « بُل رَن » نعمة فى ثوب نقمة ، فقد تضاءل الخلاف الداخلى وأصبح الناس أكثر اتحاداً فى مجهودهم الحربى . وفى الجنوب أدت أفراح الانتصار فى « بُل رَن » إلى آمال زائفة ، فقد هجر الجنود وحداتهم ، وبدءوا يشدون رحالهم للعودة إلى أوطانهم ، وظن رجال السياسة أن الانتصار سيعقبه اعتراف أوربا بالاتحاد الاستقلالى ، ويساعد على تحطيم الحصار الاقتصادى .

رأى لنكولن أنه فى حاجة إلى رجل أقوى من ماكندُول على رأس الجيش ، ومن ثم أرسل فى اليوم التالى لمعركة «بُل رن » يستدعى الجنرال جورج برنتون ماكللان . وكان القائد الجديد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، واثقاً بنفسه ، جم النشاط ، وقد تخرج فى كلية وست پوينت الحربية ، واشترك فى الحرب المكسيكية ، وعمل مراقبا حربياً فى حرب القرم ، وعندما انتهت مهمته العسكرية استقال وعين كبيراً للمهندسين ونائباً للمدير العام لسكك حديد إلينوى المركزية ، ثم أصبح رئيساً لسكك حديد المسيسبى وأوهايو .

وبعد ضرب قلعة سمتر قاد متطوعى أوهايو ثم عين لواء فى الجيش وقائداً لمنطقة أوهايو ، وقد أدت حملته الناجحة فى غرب ڤرجينيا إلى تطهير هذه البلاد من قوات الاتحاد الاستقلالى .

وكان ماكللان دارساً للتكتيك الحربى ومنظما قديراً ، وكان صغير

الجسم ، سريع الحركة ، واثقا من مقدرته ، فكان جنوده يلقبونه فى إعزاز « ماك الصغير » أو نابليون الصغير . ولكن نقائصه كانت ترجح فضائله ، فقد كان مسرفا فى الحذر ، يتردد فى التحرك إلا إذا وثق من أن كل شىء فى صالحه ، وكان دائماً ينتظر حالة اليقين . وفى مذكراته يجد المرء عبارات مثل هذه : « سأتقدم حالما أشعر أن جيشى حسن التنظيم والتدريب وفى قوة كاملة . » أو : أنا واثق فى الغد . » لقد كان لديه دائماً أمل فى (الغد) ، وكان دائم القلق من تفوق الاتحاد الاستقلالى فى الرجال فظل يلح فى طلب مزيد من القوات ومزيد من العتاد .

ولكن مهما تكن أخطاؤه فقد أثبت أنه على درجة عالية من المقدرة على تنظيمه للجيش وجعله قوة محاربة فعالة . لقد كان المجندون يدربون تحت نظام صارم ، وعُـزّز الدفاع عن واشنطون ، واتخذت التدابير لهجوم قادم . وبنهاية العام كان تحت السلاح مائة وسبعون ألف رجل حسنو التسليح . ولما كان الشمال يقدر أن الجيش الجديد يحتاج إلى تدريب فقد كان ينتظر فى صبر ، ولكن عند ما جاء الخريف ولا زالت الأنباء تقول إن كل شىء هادىء على شاطىء نهر بوتوماك ، زاد القلق ، واضطر الرئيس إلى أن يرسل الجنرال إلى المعركة .

وقد قال ماكللان لأصدقائه السياسيين إنه كان يرحب بالهجوم لو لم تكن يداه مغلولتين وشكا من أن القائد العام ونفيلد سكوت كان مصمما على خطة الدفاع . وكتب فى ذلك يقول : « إن الجنرال سكوت هو العقبة ، فهو لا يريد أن يفهم الخطر ، وعلى أن أشق طريقى على الرغم منه . قد تُقـرر المسألة غدا بإعطائى السلطة المطلقة مستقلا عنه . أعتقد أن هذا سيؤدى إلى عداوته لى ، ولكن ليس لى خيار فى ذلك . إن الشعب يدعونى لإنقاذ البلاد ، ويجب أن أنقذها ، ولا أستطيع احترام أى شىء يقف فى طريقى . لقد كان عقل ماكللان يعمل بطريقة عجيبة ، فكان ينظر إلى معارضى خططه على أنهم ليسوا أشرارا فحسب بل خونة ، وكان يحتقر الجنرال سكوت :

« إن صدرى ضيق ومرارتى تكاد تنشق من رؤية الضعف والعجز فى الكائنات البائسة التى توجه مصير هذا البلد العظيم » .

أما الجنرال ونفيلد سكوت الذى كان قد بلغ الخامسة والسبعين ، وكان يقاسى من الاستسقاء والصداع ، والذى أضجره مسلك الجنرال الشاب المتهور فقد أرسل استقالته إلى لنكولن فى نهاية شهر أكتوبر ، وقبلها الرئيس على مضض ، وفى اليوم التالى عين ماكلالان قائداً عاماً للجيش .

وبعد تولى ماكلالان القيادة بوقت قصير ، ذهب الرئيس بصحبة سيوارد وزير الخارجية وجون هاى إلى منزل ماكلالان لمناقشة بعض الأمور الحربية ، ولما كان ماكلالان غائباً فقد قرر لنكولن أن ينتظر . ووصل الجنرال بعد ساعة ، ودون أن يلتفت إلى البواب الذى أخبره أن الرئيس فى انتظاره صعد إلى الطابق العلوى ماراً بالحجرة التى جلس فيها الرئيس ووزير الخارجية ، اللذان انتظرا نصف ساعة أخرى ثم أرسل الخادم مرة ثانية ليخبر الجنرال أنهما هناك . وجاء الرد البارد : « أن الجنرال قد أوى إلى فراشه . » وغادر لنكولن المنزل فى هدوء قائلا لوزيره الحانق إنه من الأصوب فى هذا الوقت ألا نهتم بآداب الاستقبال أو بالكرامة الشخصية »

وقد استمر الرئيس يحث الجنرال على الهجوم قبل أن يأتى الشتاء وتسد الطرق فتمنع العمليات الحربية ، ولكن ماكلالان لم يكن بالذى يمكن استعجاله ، ولعله كان عازماً من أول الأمر أن ينتظر حتى الربيع ، وقبل أن يستعد للسير بجيشه إلى ريتشموند جاء الشتاء ، وكان لابد من تأخير الزحف وقد دخل جيش البوتوماك العظيم فى ثكناته الشتوية ... وبذلك انتهى عام ١٨٦١ .

٤ — الأشهر السود :

بدأ عام ١٨٦٢ بداية مظلمة . ففى الشرق كان جيش البوتوماك خاملا فى معسكراته ، وفى الغرب لم يستطع القواد تنسيق عملياتهم . وكان المطالبون بإلغاء الرق ما يزالون يتميزون من الغيظ لأن الرئيس نقض منذ بضعة أسابيع تصريح الجنرال فريمونت الذى أعطى الحرية للعبيد القاطنين فى المنطقة التى يسيطر عليها ، وقد نعت السناتور تشارلز سمنر عضو مجلس الشيوخ الرئيس لنكولن بأنه دكتاتور ، وأضاف قوله : « ولكن أية حماقة فى أن تكون للمرء قوة هائلة ولا يستعملها فيما يرضى الله ! » ولم يكن هدفا لهجوم معارضى الرق فحسب ، بل وجه إليه التعزير حتى من مؤيديه السابقين . وقد آذاه ذلك إيذاء بليغاً ، وأجاب لنكولن على تقريع أورفيل براونج صديقه المخلص منذ أيام فانداليا بخطاب طويل شرح فيه دوافعه فى صبر وأناه . كتب يقول : إن تصريح الجنرال فريمونت فيما يختص بمصادرة الملكية وتحرير العبيد قرار سياسى محض ، ولا يدخل فى نطاق القانون العسكرى أو الضرورة العسكرية . إذا وجد أحد القواد ضرورة للاستيلاء على مزرعة أحد الملاك ليجعلها مراعى أو معسكراً يقيم فيه تحصينات ، فله الحق أن يفعل ذلك ، وأن يستولى عليها طالما بقيت الضرورة قائمة ، وهذا يدخل فى نطاق القانون العسكرى لأنه يدخل فى نطاق الضرورة الحربية . أما إذا قال إن المزرعة لن تعود إلى مالكها أو إلى ورثته أبداً ، سواء أكانت المزرعة ضرورية للأغراض الحربية أم لم تكن ، فهذا أمر سياسى محض ، لا صلة للقانون العسكرى به . والأمر نفسه ينطبق على العبيد . فإذا كان الجنرال فى حاجة إليهم فله أن يستولى عليهم ويستخدمهم ، ولكن عندما تنتهى الضرورة فليس من حقه أن يقرر

حالتهم الدائمة فى المستقبل ، فهذه يجب تقريرها طبقاً للقوانين التى يضعها أصحاب القوانين لا بالتصريحات العسكرية . فالتصريح فى الحالة التى نبحثها إنما هو ديكتاتورية . فهو يفترض أن القانون العسكرى يستطيع أن يفعل أى شىء يريده : يصادر الأراضى ويحرر العبيد التابعين للرجال الداخلين فى طاعتنا أو الخارجين عليها على السواء . ولست أشك فى أن خلط هذه الأمور قد كان يرضى بعض المتهوسين أكثر مما قمنا به ، ولكنى لا أستطيع أن أتحمل مسئولية ذلك . إنك تتحدث عن هذا الأمر بأنه هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الحكومة ، ولكن على العكس ، فهو فى ذاته تسليم للحكومة. هل يمكن الادعاء أنها ستظل حكومة الولايات المتحدة أو أية حكومة ذات دستور وقوانين — وفيها قائد أو رئيس يستطيع أن يضع قواعد دائمة للملكية بتصريح يعلنه ؟ »

وقد أوضح لنكولن أن تصريح فريمونت لو لم يلغ لكانت نتيجته السياسية وبالا على قضية الشمال . فقد كان حرياً أن يحدث شعوراً بالاستياء فى ولايات الحدود ، وأن يضع ولاء ولاية كنتكى محل الاختبار القاسى . ولو خسر الاتحاد ولاية كنتكى « معنى ذلك خسارة المعركة كلها » ، فلو خرجت كنتكى لما استطعنا الاحتفاظ بميسورى ولا بماريلاند حسب ما أعتقد ، وإذا أصبحت هذه كلها ضدنا لم نستطع أن ننهض بالمهمة التى بين أيدينا . فكأننا بهذا العمل قد وافقنا على الانفصال فوراً مع تسليم هذا الكابيتول .(1)

لقد كانت قائمة متاعب الرئيس طويلة ، فقد كانت هناك صعوبات مع انجلترا لأن اثنين من وكلاء الولايات الانفصالية أخرجا بالقوة من سفينة بريطانية ، وقد استمر الجفاء حتى بعد إطلاق سراحهما . وكانت هناك صعوبات مع المتطرفين فى حزبه ، وقد شكل الكونجرس لجنة مشتركة لإدارة الحرب ، وأضجرته هذه اللجنة وجارت على سلطته ، وكان القواد

(1) مقر الكونجرس فى الولايات المتحدة الأمريكية . (المراجع)

يستدعون لأداء الشهادة ، فإذا ما وافقت شهادات بعضهم معتقدات اللجنة عوملوا بحفاوة ، أما الآخرون فكانوا يتعرضون للتشهير وتلطخ سمعتهم .

وكانت هناك أخطاء فى وزارة الحربية ، وكان شراء البطاطين والأحذية والحقائب التالفة للقوات من التجار الذين يؤيدون الحكومة سياسياً ، سبباً فى إشاعة التذمر . ولقد كان سيمون كاميرون وزير الحربية ضعيفاً كسولا ، وكانت عيناه مغمضتين عن الفساد واستغلال النفوذ ، وما إن سنحت الفرصة للنكولن حتى أعفاه من منصبه وعين محله إدوين م . ستانتون .

وكانت هناك الصعوبات المعتادة مع الجنرال ماكللان ، ولكنها أصبحت غير عادية عندما مرض الجنرال مرضاً خطراً ، ولزم فراشه ، وأسلم شئون جيشه للركود .

وكان لنكولن يصرخ فى غيظ قائلا : « ماذا أفعل ؛ لقد نفد صبر الناس ، وتشيس ليس لديه مال ، ويقول لى إنه لا يستطيع الحصول على أموال أخرى ، وقائد الجيش مريض بالتيفود ، ليس عندى من أعتمد عليه . فماذا أفعل ! ؟ »

وقد فكر جدياً فى أن يتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية . ولكن عندما شفى ما كللان وحضر إلى واشنطون سمح له لنكولن بالاستمرار فى خططه ، ولكى يحفز « ماك الصغير » على العمل أصدر لنكولن « الأمر الحربى العام رقم « ١ » العجيب ، مشيرا بأن تبدأ فى ٢٢ فبراير ١٨٦٢ حملة شاملة من القوات البرية والبحرية للولايات المتحدة ضد القوات المتمردة .

وأضيفت الأحزان الشخصية إلى المتاعب السياسية والحربية ، ففى فبراير مات ابنه ويلى لنكولن عن اثنى عشر عاما تاركا أباه صريع الحزن . يصرخ متوجعاً : « ولدى المسكين ! لقد كان أطيب من أن يعيش فى هذه الدنيا . »

وقد رفض الطعام ، وراح يذرع الأرض ساعات طويلة في تفكير عميق ، واقترح أن يكون يوم الخميس وهو يوم وفاة ويلى يوم حداد عام للأسر التى فقدت أبناءها فى الحرب .

وقد جزعت مارى و توسلت إلى الأب الدكتور فرانسيس فنتون أن يتحدث إلى زوجها ، وحضر القس ، وقال للنكولن إن تماديه فى حزنه بالرغم من أنه طبيعى إنما هو خطيئة وغير جدير برجل يدين بالمسيحية ، وقال له : « إن ابنك حى فى الجنة . هل تذكر تلك الآية فى الإنجيل التى تقول : « وليس هو إله أموات بل إله أحياء لأن الجميع عنده أحياء » وأجاب لنكولن والدمع ينهمر من عينيه : « حى ! حى » وأجاب القسيس : « لا تنظر إلى ابنك بين الأموات . إنه ليس بينهم ؛ إنه اليوم يعيش فى الجنة . »

كانت أشهرا عصيبة ، تلك الأشهر الأولى من عام ١٨٦٢ . وكان الاتحاد الذى مل الحرب فى حاجة شديدة إلى انتصار عسكرى .

٥ — القائد الأعلى

أقبل الربيع وكان جيش البوتوماك مايزال فى ثكناته .

لقد رسم ماكللان خطته بحذر كبير ، فقرر أن ينقل جيشه بالقوارب إلى قلعة مونرو ، ثم يزحف به فى المنطقة الواقعة بين نهرى يورك وجيمس ، المسماة بشبه الجزيرة ، فى اتجاه عاصمة الانفصاليين . وبالرغم من أن لنكولن لم يتحمس للخطة فقد وافق على تنفيذها حينما صوت ثمانية من قواد جيش ماكللان موافقين عليها ، ولكنه اشترط أن تترك قوات كافية للدفاع عن العاصمة .

وأخيراً ، وفى أول أبريل ، نزلت طلائع جيش الاتحاد فى قلعة مونرو . وقد اشتكى ماكللان من قلة الرجال « وكان آنذاك مسئولا فقط عن قيادة جيش البوتوماك ، واستنكر فى مرارة احتفاظ الرئيس بفرق الجنرال ماكدويل للدفاع عن واشنطن ، وشكا من أنه لم يجهز تجهيزاً كافيا . ورد لنكولن قائلا : « إن رسائل الجنرال تؤلمنى كثيراً ، وإن ادعاءاته من أنه لم يجهز تجهيزا كافيا لا أساس لها . » وقال للجنرال « أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب بالضبط لكى تضرب . سيتفوق عليك العدو إذا تأخرت فى الضرب ، إذ أنه سيتفوق بالاستحكامات والإمدادات أكثر مما تفعل أنت بالإمدادات فقط . »

ولكن ماكللان لم يكن بالرجل الذى يستمع إلى مثل هذه النصيحة .. وقد مضى أكثر من شهر قبل أن تسقط يوركتون . وفى يوم ٦ مايو ، وهو اليوم التالى لإخلاء الانفصاليين المدينة ، ذهب لنكولن إلى قلعة مونرو ليشجع قائده البطىء الحركة ويستحثه . وقد وعده بإرسال قوات

أخرى ، ولو أنه فيما بعد حينما زحف ستونوول جاكسون على وادى شنندوا ، وهدد سلامة واشنطون لم يذهب جيش ماكدويل إلى شبه الجزيرة ، وإنما أرسل إلى الوادى . فلم يكن لنكولن يرغب فى تضحية ملك بملك ، أى فى تسليم واشنطون لقاء احتلال رتشموند .

استمر الرئيس على صلة وثيقة بقواده ، وكان يبرق لهم أحيانا عدة مرات كل يوم . ولنأخذ يوم ٢٤ مايو ١٨٦٢ على سبيل المثال ، وهو اليوم الذى قرر فيه ألا يرسل جيش ماكدويل إلى شبه الجزيرة . فنى الساعة الرابعة صباحا أرسل برقية إلى ماكلان يقول : « نتيجة لموقف الجنرال بانكس المتأزم . اضطررت لإلغاء تحرك جيش الجنرال ماكدويل للانضمام إليك . إن العدو يهجم هجوما يائسا على هاربرزنيرى ، ونحن نحاول أن نلقى قوات فريمونت وجزءا من قوات ماكدويل فى مؤخرتهم . »

وبعد ساعة ، أى فى الخامسة صباحا ، أمر الجنرال ماكدويل « أن يسير عشرين ألف رجل فى الحال إلى شنندوا على خط مانساس جاب رود أو وراءه . وأرسل برقية أخرى إلى الجنرال فريمونت « أن يزحف لملاقاة جاكسون فى هاريسبرج ويقوم بعمليات ضد العدو لتخفيف العبء عن بانكس . ويجب القيام بهذه الحركة فورا » . وفى الساعة السابعة والربع صباحا أرسلت برقية ثانية إلى فريمونت : « إن الكثير — أو كل شىء — يتوقف على السرعة التى تستطيع بها التنفيذ . ضع أقصى سرعة فى العملية ولا تضيع دقيقة واحدة . »

وسأل الكولونيل مايلز : « هلا يمكن أن ترسل قوات استطلاعية من وينشيستر لتعرف ما إذا كان العـــدو شمالى موقع بانكس ويزحف إلى وينشيستر ؟ ما هى آخر أخبارك ؟ » وسأل الجنرال ساكستون : « أرجو إبلاغنا إن أمكن عن مصير القوة التى اقتفت أثر بانكس بالأمس . »

وقبل غروب الشمس أبلغ لنكولن ماكللان بالأحداث فى المسارح الأخرى للعمليات ، واقترح عليه ما يأتى : « إذا استطعت أن تقرن حركة ماكدويل ضد أندرسون بإرسال قوة من جناحك الأيمن لتقطع إمدادات العدو عن ريتشموند والمحافظة على قناطر السكة الحديدية عند فرعى اليامونكى وتقطع خط الرجعة على العدو فسيكون لديك خط حديدى للإمدادات زيادة على الخط الموجود عندك الآن . ألا تستطيع أن تفعل ذلك فى أثناء بنائك لكبارى تشيكاهومينى ؟ »

ومن قراءة هذه البرقيات لا يبقى مجال للشك أن لنكولن لم يكن القائد الأعلى بالاسم فحسب ، بل إنه قام بدور كبير فى التخطيط العسكرى .

وبعد يومين ، أى فى يوم ٢٦ مايو ، عندما كان ماكللان على مرمى البصر من ريتشموند ، أرسل إليه الرئيس برقية يقول فيها : « أعتقد أن الوقت قد آن لتهاجم ريتشموند أو تترك هذه العملية وتحضر للدفاع عن واشنطن . » وفى هذا الوقت كان جيش البوتوماك قد أمضى مايقرب من شهرين فى شبه الجزيرة متقدما ستين ميلا فقط .

وفى اليوم الأخير من مايو عندما رأى الجنرال جونستون أن جيش ماكللان موجود على ضفتى نهر تشيكاهومينى الذى كان فى موسم فيضانه ، قام بمهاجمة جيش الولايات المتحدة بالقرب من فيرأوكس وسفن باينز . واستمرت المعركة يومين دون نتيجة حاسمة ، وبخسارة لكلا الجانبين .

وفى فيرأوكس جرح الجنرال جونستون قائد جيش الاتحاد الاستقلالى جرحا بليغا ، واضطر إلى اعتزال القيادة . وأصبح الجنرال روبرت ا . لى هو القائد الجديد لجيش الجنوب . وكان يعرف ماكللان جيدا ، وقد قيل عنه إنه يستطيع أن يقرأ أفكار ماكللان كما لو كانت فى كتاب مفتوح . فقدر أن ماك الصغير ينتظر الإمدادات ، وأصبح هدفه أن يهاجمه قبل وصول هذه الإمدادات .

وفى ٢٦ يونية بدأت القوات الانفصالية هجومها . وقد حارب الجيشان ببسالة لمدة أسبوع فى « معركة الأيام السبعة » وخسر الاتحاديون ستة عشر ألف رجل ، وخسرت القوات الانفصالية عشرين ألف رجل .

وقد تخلص ماكلالان من هجمات القوات الانفصالية وتقهقر ستة عشر ميلا إلى « هاريسونزلاندنج » حيث أقام استحكاماته ، وألقى اللوم فى فشله على الرئيس لأنه كان دائم التدخل فى الاستراتيجية العسكرية . وقد كتب يقول فى رسالة إلى وزير الحربية : « إذا أنا أنقذت هذا الجيش الآن ، فإنى لا أكون مديناً بالشكر لك أو لأى شخص آخر فى واشنطن . لقد فعلتم كل ما تستطيعون للتضحية بهذا الجيش . »

لقد كان ماك الصغير يتميز غيظا .

٦ — البحث عن قائد :

كان الشمال فى حاجة إلى دم جديد يعوض ما فقده من جنود . وحينما طلب لنكولن جنودا من حكام الولايات أكد لهم أن المعركة ستستمر حتى النصر « أو أموت أو أقهر أو تنتهى مدة حكمى أو يطلب الكونجرس أو تطلب البلاد أن أعتزل » .

وفى اليوم الأول من يولية ١٨٦٢ ، عندما صدر نداء يطلب ثلاثمائة ألف متطوع ، قال الرئيس للجنرال ما كالان : « من المستحيل أن أرسل إليك إمدادات فى الموقف الذى أنت فيه ، ولو كان عندنا مليون رجل لما استطعنا إرسالهم إليك فى الوقت المناسب ، ومع هذا فليس لدينا رجال لنبعثهم . وإذا لم تكن من القوة بحيث تستطيع مواجهة العدو ، فيجب أن تجد مكاناً آمنا تنتظر فيه وتستريح . احتفظ بمواقعك إن استطعت ، ولكن يجب أن تنقذ الجيش على كل حال حتى إذا اقتضى الأمر أن تتقهقر إلى قلعة مونرو . فما يزال لدينا قوة كافية فى البلاد وسنستخدمها » »

لقد كانت معرفة لنكولن بالأمور الحربية فى بداية عهده بالرياسة معرفة سطحية ، ولكنه أتقن الاستراتيجية والعمليات الحربية أثناء سير الحرب ، فقد كان عقله سريع الإدراك للمشكلات ، ومع هذا لمس حاجته إلى مستشار عسكرى ، إلى رجل يستطيع أن يلجأ إليه ويطلب مشورته . فلما رجع من هاريسبونزلاندنج حيث زار ماكالان فى ٨ يولية ، استدعى الجنرال هنرى . و . هاليك إلى الشرق ، وأسند إليه قيادة جميع القوات البرية للولايات المتحدة بوصفه قائداً عاما . »

كان هاليك صغير السن ، فقد كان عمره سبعة وأربعين عاما ، ولو أن

صوره تجعل المرء يظنه أكبر من ذلك بعشرين سنة . وكانت فى طباعه جفوة ، يبدو متكافأ مترفعاً ، ولكنه كان مشهوراً بالحصافة والألمعية ، وكانوا يلقبونه « المخ الكبير » ، وقد ترجم كتباً من الفرنسية عن النظرية الحربية ، وكانت له مؤلفات عن المشكلات الحربية .

ولو كان خلق « هاليك » غير هذا لكان تعيينه فى القيادة العليا موفقاً . ولكنه — كما أوضح الأستاذ هارى وليامز فى كتابه الرائع « لنكولن وقواده » — « كان قائداً أعلى بالاسم ، ونادراً ما كان كذلك فى الحقيقة . لم يكد يمارس سلطانا فعلياً ما على العمليات الحربية ، وكانت فترة قيادته تجربة لم تنجح فى مجال التوجيه الموحد للجيوش ، لأنه كان يكره المسئولية ولا يحب أن يوجّه . وكان يسره أن يشير ، ويكره أن يتخذ قراراً . ومع ذلك فقد كانت تلك التجربة لازمة ، وكانت درساً للنكولن . فقد كانت الحكومة تتلمس الطريق نحو نظام قيادى حديث ، وقد تعلم لنكولن الكثير من تجربته مع هاليك . »

وكانت المشكلة الحربية العاجلة التى تواجه لنكولن هى : هل يُترك جيش ماكلالان فى شبه الجزيرة ويعاد إمداده بغية القيام بهجوم آخر على ريتشموند ، أو يستدعى وينضم إلى القوات المرابطة فى واشنطن وحولها تحت قيادة الجنرال پوب . وقد ذهب هاليك لمقابلة ماكلالان فى هذا الشأن ، فقال ماكلالان إنه يستطيع إذا أمد بثلاثين ألف رجل أن يستولى على ريتشموند . وعرض عليه هاليك عشرين ألفاً فوافق على هذا العدد .

ولكن لم يكد هاليك يعود إلى واشنطن حتى وصلت برقية من ماكلالان يطلب فيها أربعين ألف رجل لا عشرين ألفاً ، لأن التسعين ألف رجل الذين تحت قيادته يوجد بإزائهم ضعف هذا العدد — كما يعتقد — من القوات الانفصالية (والحقيقة أن جيش الجنرال لى لم يزد على خمسة وسبعين ألف رجل فى أى يوم من أيام الحرب .)

واضطر لنكولن لاتخاذ قرار حاسم ، فقد كان يعلم أن جيش الانفصاليين الكبير بين پوب وماكلالان يمكن أن يهدد القوات الاتحادية ، ولهذا أمر ماكلالان بمغادرة شبه الجزيرة والانضمام إلى پوب . واستنكر ماكلالان الأمر فى غضب ولكن دون جدوى .

ولما علم الجنرال لى أن ماكلالان لن تصله إمدادات ، أقدم على إرسال جيش ضد پوب ، وكان هدفه تحطيم قواته قبل أن تصله قوات ماكلالان . وكان لنكولن بأستاذيته فى الاستراتيجية يتصور ماذا كان لى يرغب فى تحقيقه ، ولهذا توسل إلى ماكلالان أن يعمل بسرعة .

ولكن ماكلالان تمهل كعادته . وفى يوم ٢٤ أغسطس ، حين عبرت القوات المتحالفة راپاهانوك ، وأخذت تهدد مؤخرة جيش پوب ، كان ماكلالان ما يزال بعيداً . وأبلغ الرئيس كتابة أنه إذا لم تستطع القوات الانضمام فيجب أن يُترك پوب « ليتخلص من مأزقه » . وقد أظهرته تلك المذكرة فى أسوأ حالاته ، كقائد يبدو مسروراً من تأزم موقف منافسه . واستفظع لنكولن هذه الملاحظة القاسية .

وفى يومى ٢٩ و ٣٠ أغسطس هاجم الجنرال لى قوات پوب وهزمه فى معركة « بل رن » الثانية .

وقد تركت الهزيمة الجيش فى حالة من التفكك وعدم النظام . واضطر لنكولن أن يلجأ مرة ثانية إلى ماكلالان . فقد أفضى إلى وزير البحرية بقوله : « يجب أن استدعى ماكلالان لإعادة تنظيم الجيش وإخراجه من من الفوضى . لقد كانت هناك خطة وغرض من تحطيم پوب دون مراعاة للنتائج التى تحيق بالبلاد ، وإنه لمن المخجل أن نرى ونعرف ذلك ، ولكن ليس هناك علاج فى الوقت الحاضر . فماكلالان معه الجيش . » لقد أسندت قيادة القوات الموجودة حول واشنطن مؤقتاً إلى ماك الصغير .

لم يكن لنكولن مخدوعا فيه . لقد كان يعرف نقائصه : بطأه وأنانيته

وصلفه ، ولكنه كان يعلم كذلك أنه وقد أصبح الجيش فى مثل ذلك الموقف فلن يوجد إنسان أحسن من ماكلان يستطيع إعادة تنظيمه وتدريبه .

وعندما دخل لى ماريلاند بعد ذلك بأيام قليلة ، وكان الاتحاد فى حاجة إلى قائد للمعركة ، كان ذلك القائد هو ماكلان مرة أخرى . وقد كتب الجنرال إلى زوجته منتشياً : « لقد استدعيت مرة أخرى لإنقاذ البلاد . إن الموقف ميئوس منه ، ولكننى بعون الله سأحاول مخلصاً أن أبذل غاية جهدى ، وإن شاء الله سأحقق خلاص الأمة . »

وكان الحظ فى جانبه هذه المرة . فقد وجد جندى من إنديانا أمراً يظهر فيه توزيع القوات الانفصالية . وصاح ماك الصغير : « هذه ورقة إن لم أستطع بها أن ألهب ظهر بوبى لى فسأعود إلى منزلى . » وبالغ فى قيمة مناوشة مبدئية صغيرة تصورها كأنها نصر أغر محجل ، وقـــد أجاب لنكولن قائلا « ليباركك الله والجميع معك . حطم جيش الثوار إن أمكن. » وبعد ذلك بيومين أى فى ١٧ سبتمبر التحم جيش الاتحاد وجيش الانفصاليين عند خليج أنتيتام فى معركة من أدمى معارك الحرب ، واضطر لى إلى الانسحاب من الميدان .

ولو كان ماكلان جريئاً ، لاستطاع أن يحطم جيش الانفصاليين عند أنتيتام . ولكنه كان حذراً ، وكان والمعركة على أشدها يحتفظ بفريق كامل كاحتياطى ، فى حين كان ينبغى إنزاله إلى المعركة . وعندما تقهقر لى سمح له بالهرب دون أن يتعقبه .

وقد كتب لنكولن هذه التأملات عن مصير الجيوش :

« إن إرادة الله هى الغالبة . وفى المعارك الكبيرة يدعى كل فريق أنه يعمل حسب إرادة الله . ولابد أن يكون أحدهما مخطئاً ، وقد يكونان جميعاً مخطئين ، لأن الله لا يمكن أن يكون مع الشىء نفسه وضده فى وقت واحد . وفى هذه الحرب الأهلية قد تكون إرادة الله مغايرة لغرض كلا

الفريقين ، ومع ذلك فإن الوسائل البشرية على ما هى عليه هى أحسن وسيط يضع الله به إرادته موضع التنفيذ . وأكاد أقول إن هذا صحيح على الأرجح ، وإن الله يريد هذه الحرب ويريد ألا تنتهى الآن . وسلطانه العظيم على عقول المتحاربين الجدد كان يستطيع أن ينقذ الاتحاد أو يحطمه دون معركة إنسانية ، ولكن المعركة بدأت . ومنذ بدأت كان فى قدرته أن يمنح النصر النهائى لجانب من الجانبين فى أى يوم ، ولكن المعركة لا تزال مستمرة . »

وفى اليوم التالى لتسجيله هذه الخواطر ذهب لمقابلة ماكللان ، وأمضى أربعة أيام مع الجيش ، وكان ينام فى خيمة بمقر قيادة الجنرال . وفى باكورة يوم من الأيام ، عندما كان يسير بين صفوف الخيام ، التفت فى يأس إلى صديقه أوزايس هاتش من إلينوى قائلا : « هاتش ، هاتش .. ما هذا كله ؟ »

— إنه جيش البوتوماك ياسيادة الرئيس .

— كلا يا هاتش ، كلا ، إنه حرس ماكللان .

طلب لنكولن من الجنرال أن يعبر البوتوماك ويقتفى أثر القوات الانفصالية والطريق ما يزال فى حالة جيدة ، ووعده ماكللان بذلك ، ولكنه مالبث أن عاد إلى مسلكه القديم ، وطلب مزيداً من الرجال والمؤن والخيل . واستحثه لنكولن قائلا :

« ألست مبالغاً فى الحذر عندما تفترض أنك لا تستطيع أن تفعل ما يفعله العدو دائماً ؟ ألست جديراً بأن ترى نفسك مساويا له فى الشجاعة على أقل تقدير ، وتتصرف طبقاً لذلك ؟ »

وقد قدم الرئيس خطة مؤداها أنه « إذا تقدم لى إلى الشمال فيجب تتبعه عن قرب والاستيلاء على خطوط مواصلاته . وإذا منعنا من الاستيلاء على خطوط مواصلاته وزحف إلى ريتشموند فيجب الاقتراب منه والالتحام معه فى معركة إذا سمحت فرصة مواتية ، أو على الأقل محاولة ضربه وهو فى الطريق إلى ريتشموند . وأنا أقول

(محاولة) ، فإننا إن لم نحاول فلن ننجح أبداً . أما إذا ثبت عند ونشيستر ولم يتقدم شمالا أو جنوبا يجب محاربته هناك ، على أساس أننا إن لم نستطع ضربه وهو يحمل عبء مجيئه إلينا فلن نستطيع ضربه أبداً ونحن نحمل عبء الذهاب إليه . إن هذه القضية حقيقة بسيطة ، ومن المهم جداً ألا تختفى عن الأنظار لحظة واحدة . فمجيئه إلينا يعطينا ميزة يجب ألا نضيعها ، ويجب ألا تكون عملياتنا لمجرد إبعاده . ولما كان من المحتم أن ننزل به الهزيمة فى مكان ما أو نفشل نهائياً ، فإننا لا نستطيع أن نهزمه إن كان لنا أن نهزمه وهو قريب منا لا وهو بعيد عنا . إن لم نستطع أن نهزم العدو حيث هو الآن فلن نستطيع ذلك على الإطلاق . . » ولكن فى الوقت الذى عبر فيه ماكلالان البوتوماك بعد ذلك بستة أسابيع كان لى قد فاته .

وفى ٥ نوفمبر عزل لنكولن ماكلالان من القيادة . وقال لأحد السياسيين الذى جاءوا ليتوسطوا للجنرال : « لقد قلت إننى سأعزله إذا مكن لى من الهرب بجيشه ، ويجب أن أفعل ذلك ، إنه مريض بالبطء . . »

وكان القائد الجديد هو أمبروز ا . بيرنسايد ، وهو شاب فى الثامنة والثلاثين من العمر ، وسيم ، جرىء ، مندفع ، طويل شعر العارضين . وخلال يومين اثنين وضع بيرنسايد خطة ترمى إلى الزحف نحو فريد ريكسبرج ومن هناك إلى ريتشموند .

غادر المعسكر وتقدم إلى فالموث ومنها إلى فرد ريكسبرج ، ولم يتوقف إلا فى رباها نوك لمدة أسبوع فى انتظار الجسور الحربية . وفى أثناء انتظاره كان الجنرال لى قد جلب إمداداته ، فلما أصدر بيرنسايد أمره بالهجوم يوم ١٣ ديسمبر . كان الانفصاليون متحصنين فى مواقعهم على مرتفعات المدينة . وقبل الغروب كانت خسارة الاتحاد قد بلغت اثنى عشر ألف رجل .

أثار انقلاب الموقف إلى مأساة فى فرد ريكسبرج ثائرة الشمال .

وأصبح تولى الرئيس أمور الحرب محل هجوم شديد . وكان لنكولن إذ ذاك في حالة يأس ، وقد قال لأحد أصدقائه : « نحن الآن على شفا الهلاك — يبدو أن الله غاضب علينا . وأكاد لا أرى بارقة أمل » .

وفى يناير ١٨٦٣ قبلت استقالة بيرنسايد ، ذلك أن منازعاته مع غيره من كبار الضباط جعلت فصله أمرا لا مفر منه .

وقد حل محله جوزيف هوكر ، وهو « فارس وسيم مرح ، متوثب ، واثق بنفسه ، يفيض حيوية مرح كغلام صغير » . استدعاه لنكولن إلى مكتبه وسلمه هذا الخطاب :

« ياجنرال :

لقد عينتك على رأس جيش البوتوماك . وقد اتخذت هذا القرار بطبيعة الحال لأسباب بدت لى كافية ، ومع هذا فأنا أعتقد أنه من الأنسب لك أن تعرف أن فيك أشياء لا أستريح إليها تماما .

أنا أعتقد أنك جندى شجاع ماهر ، وهذا أمر أحبه بطبيعة الحال . وأعلم كذلك أنك لا تخلط السياسة بمهنتك ، وأنت مصيب فى ذلك . وأنت واثق فى نفسك ، وهذه خصلة قيمة وإن لم تكن لازمة ، وأنت طموح ، والطموح المعقول يؤدى إلى الخير أكثر من الشر . لقد سمعت — بطريقة تجعلنى أصدق — أنك قلت أخيراً إن الجيش والحكومة كليهما فى حاجة إلى دكتاتور ، وليس لهذا — بطبيعة الحال — سلمتك القيادة ، بل على الرغم من هذا سلمتك إياها ، إن القواد الذين يحققون النجاح هم فقط الذين ينقلبون إلى دكتاتوريين ، والذى أطلبه منك الآن هو النجاح العسكرى ، مخاطراً فى ذلك بالدكتاتورية . إن الحكومة ستساندك بأقصى ما فى طاقتها . ولو أن ذلك لن يكون أكثر ولا أقل مما فعلته وسنفعله مع جميع القواد ...

والآن احذر الطيش . احذر الطيش ، ولكن تقدم بهمة ويقظة ساهرة وهات النصر . »

وفى أوائل مايو كان جيش البوتوماك يتقدم مرة أخرى نحو فردريكسبرج ، وبالقرب من قرية تشانسلورفيل دارت معركة منى فيها الاتحاد بهزيمة أخرى منكرة .

ولما علم لنكولن بأخبار تلك النكبة اسود وجهه ، وكان يئن وهو يذرع حجرته قائلا : « يا إلهى ! يا إلهى ! ماذا ستقول البلاد ! ماذا ستقول البــــلاد ! »

وقد حضر هوكر إلى واشنطن فى عصر اليوم نفسه وسلمه الرئيس مذكرة كتب فيها : « حبذا لو أمكن القيام بحركة أخرى نستفيد بها من تقطع خطوط مواصلات العدو ، ولكنى لا أرغب من أجل هذا السبب أو غيره أن يجرى عمل ما فى يأس أو طيش . وإن القيام بحركة قريبة سيساعد كذلك على تغيير الروح المعنوية السيئة التى نشأت من العملية الأخيرة ، والتى تنطوى ولا شك على ضرر كبير ، فهل فى ذهنك خطة أو بداية لخطة ؟ إن كان الأمر كذلك فنفذها دون تدخل منى . وإذا لم تكن لديك خطة فأرجو إبلاغى بذلك حتى أحاول — على الرغم من عجزى — أن أساعد فى تكوين خطة ما للجيش . »

ولكن عندما صمم الجنرال بعد مضى شهر على عبور راپاهانوك ومهاجمة مؤخرة الانفصاليين أرسل إليه لنكولن محذراً :

« لا أرى أن نخاطر بعبور النهر ، كالثور الذى قفز بنصف جسمه فوق الجدار وأصبح معرضاً لأن تمزقه الكلاب من خلفه وقدامه ، دون أن تكون لديه فرصة لأن ينطح برأسه أو يركل بقدمه . وإذا جاء إلى ضفة

النهر التى نحن عندها فيجب أن نظل على هذه الضفة ونقاتله ، أو نقف مدافعين ، حسب تقديرنا لقوته بالنسبة إلى قوتنا . »

وإذا كان لى يتقدم إلى الأمام ، فقد كانت أحسن الخطط هى متابعته ومهاجمته فى الزمان والمكان المناسبين . وقد تبين لنكولن الثغرة فى خطة لى ، وكتب إلى هوكر يقول : « إذا كانت مقدمة جيش لى فى مارتينزبرج ومؤخرته على المعبر الواقع بين فردريكسبرج وتشانسلورفيل ، فلابد أن يكون الحيوان هزيلا فى موضع ما . ألا تستطيع أن تكسره ؟ »

ولكن مع مرور الأيام أخذ هوكر يسلك مسلك ماكلان ، مطالبا بقوات وإمدادات إضافية . وكانت أعصابه على حافة الانهيار ، فتشاجر مع الجنرال هاليك ، وهدد بتقديم استقالته . وكان على لنكولن أن يختار بين هاليك وهوكر ، وقد اختار هاليك . وفى يوم ٢٨ يونية ، وكانت قد بدأت تظهر بوادر معركة جديدة ، أعفى هوكر من القيادة وعين الرئيس الجنرال جورج ميد بدلا منه ، وكان الجنرال ميد يلقب « بالسلحفاة العجوز اللاذعة » ، فقد كان رجلا نظاميا ضيق الصدر ، جاداً عبوساً لا يعرف الفكاهة أو النكتة ، ولكنه كان ذا موهبة فى التكتيك الحربى .

وتحت قيادة ميد ، وفى الأيام الثلاثة الأولى من شهر يولية ، دارت أكبر عملية من عمليات الحرب الأهلية عند مدينة جتسبرج الصغيرة فى بنسلفانيا ، وكانت نتيجتها هزيمة منكرة للجنوب وتحولا بالنسبة للشمال. لقد تقهقر الانفصاليون تاركين وراءهم الألوف من خيرة رجالهم على أرض المعركة .

وفى يوم ٤ يولية عقب معركة جتسبرج بيوم واحد جاءت الأنباء من الجنرال جرانت بأنه قد استولى على فيكسبرج . وبذلك تحرر المسيسبى . وقد قال لنكولن وهو ممتلىء أملا : « والآن إذا استطاع الجنرال ميد أن

يتم عمله الذى سار فيه حتى الآن سيرا مجيدا ، بأن يحطم جيش لى تحطيماً تاماً أو شبه تام ، فإن الثورة تكون قد انتهت . »

ولكن آمال الرئيس خابت عندما قرأ تهنئة ميد إلى قواته ، التى قال فيها إن جيش الاتحاد « يجب أن يطرد من أرضنا كل أثر للغزاة ». فقال لنكولن: « يطرد الغزاة من أرضنا ! يا إلهى ، هل هو كل شىء ؟ ألم يكن لهؤلاء القواد أن يطرحوا تلك الفكرة من أدمغتهم ؟ إن البلاد كلها أرضنا . »

كان على ميد أن يتعقب لى ويحطمه قبل أن يعبر البوتوماك ، وحينما تأخر ميد فى التحرك قال لنكولن : « يبدو أن الجنرال سيكون مستعداً للدخول فى معركة رائعة حين لا يكون هناك عدو يحاربه . » وكانت النتيجة كما توقع لنكولن . لقد هرب لى . وقال لنكولن : لقد كانوا فى متناول أيدينا . كان علينا فقط أن نمد أيدينا كى نقبض عليهم . »

أخطر الجنرال هاليك الجنرال ميد بخيبة أمل الرئيس ، ورد عليه ميد بأن قدم استقالته وكتب له لنكولن خطاباً طويلا ، خطابا لم يرسله قط ، يقول فيه :

« لا أعتقد أنك تقدر فداحة الكارثة فى هروب لى . لقد كان فى متناول يدك بسهولة ، ولو أطبقت عليه لكانت فى ذلك — مع انتصاراتنا الأخيرة الأخرى — نهاية الحرب . فإن الحرب ستمتد إلى وقت لا يمكن تحديده . »

ولكن رسالة أخرى أرسلت بدلا من هذه الرسالة ، رسالة يشكر فيها الجنرال يوليس جرانت على ما أداه ، وكانت تلك الرسالة كما يلى :

« لست أذكر أننا تقابلنا شخصياً مرة واحدة . وإنى أسطر لك هذا الخطاب الآن معترفا بخدمتك التى لا تكاد تقدر للبلاد على أننى أحب أن أضيف كلمة أخرى ، فعندما وصلت إلى منطقة فيكسبرج ، اعتقدت أنك ستفعل ما فعلته فى النهاية وهو تسيير القوات على طول العنق

ونقل البطاريات على الناقلات . وبذلك نهبط إلى الجنوب . ولم يكن لدى ثقة ما — سوى أمل عام بأنك أكثر منى خبرة — فى أن تجنح حملة مريازو وماإليها . وعندما ذهبت إلى الجنوب واستوليت على بورت جبسون وجراند جلف والمنطقة المجاورة ، اعتقدت أنك ينبغى أن تواصل الانحدار مع النهر وتنضم إلى الجنرال بانكس . وعندما انحرفت إلى الشمال الشرقى من بيج بلاك خشيت أن تكون قد أخطأت . وأحب الآن أن أقدم اعترافى الشخصى بأنك كنت على صواب وأنى كنت على خطأ . »

وفى أثناء الفترة التى كان الجنرال جرانت يحاصر فيها فيكسبرج ، أفضى لنكولن إلى أحد الضباط بأنه إذا استولى الجنرال على المدينة « فسيكون سندى وأكون سنده طيلة الحرب . » وها قد استولى جرانت على فيكسبرج - وأخيراً وبعد ماكللان وبيرنسايد وهوكر وميد ، وجد الرئيس قائداً .

٧ ــ إعلان تحرير العبيد

كان من بين الأفكار التى علق لنكولن على تحقيقها أكبر الآمال أن يقدم معونة مالية للولايات التى تتخذ خطوات فى سبيل تحرير العبيد بالتدريج مقابل تعويض .

وكانت حجته أن مليوناً واحداً من الدولارات أو أقل من نصف نفقات الحرب عن يوم واحد يكفى لشراء جميع العبيد فى ولاية ديلاوير بواقع أربعمائة دولار للرأس . وقد أقر الكونجرس هذا القرار دون تصويت من ممثلى ولايات الحدود . .

وبتقدم الحرب أصبحت مشكلة تحرير العبيد مشكلة حامية ، إذ كيف تكون معاملة الزنوج الذين تدفقوا على معسكرات الشمال مثلا ؟ هل يستخدمون كعمال فى التحصينات ؟ هل يسمح لهم بالقيام بالواجب خلف الخطوط ؟

نقض لنكولن فى عام ١٨٦١ ، كما نعلم ، التصريح الذى أصدره الجنرال فريمونت بتحرير العبيد فى منطقته . وبعد ذلك بعام وجد لنكولن نفسه مضطرا كذلك لإلغاء قرار أصدره الجنرال هنتر قائد منطقة الجنوب ، وأعتق بموجبه جميع العبيد فى ولايات جورجيا وكارولينا الجنوبية وفلوريدا . وقد قال لنكولن فى ذلك الصدد : « يجب ألا يفعل أى قائد مثل هذا الأمر على مسئوليتى أنا دون الرجوع إلىّ . »

لقد كان تحرير العبيد سلاحاً سياسياً قوامه الأخطار . وكان يمكن أن يؤدى إلى انفصال ولايات الحدود القلقة التى تملك الرقيق ، والتى كانت ماتزال على ولائها للاتحاد . وكان يمكن أن يؤدى إلى إثارة غضب هؤلاء

الديمقراطيين والجمهوريين المحافظين الذين كانوا يؤيدون الحكومة في نضالها لصيانة الاتحاد ولكنهم ما كانوا ليؤيدوها لو أصبح هدف الحرب هو إلغاء الرق .

وفي يولية عام ١٨٦٢ كان الرئيس قد أعد وثيقة تعلن حرية عبيد الولايات الثائرة . وعندما قرأها على مجلس الوزراء ، أوضح وزير الخارجية أنه إذا صدر مثل هذا الإعلان على أثر الهزائم العسكرية فإن الناس سيعتقدون أن « الحكومة تمد أيديها إلى الحبشة بدلا من أن تمد الحبشة أيديها إلى الحكومة . » فأخذ لنكولن برأى سيوارد ، وقرر أن ينتظر حتى يأتى نصر عسكرى .

وفي أغسطس كتب هوراس جريلي — الذى كان دائم القلق — إلى السناتور تشارلز سامنر يقول : « هل تذكر ذلك الكتاب الديني القديم الذى يحتوى على الآتى : الفصل الأول : الجحيم — الفصل الثانى : تابع الجحيم ؛ إن هذا يعطينا فكرة عن الكيفية التى يجب بها مخاطبة لنكولن فى هذه الأزمة التى يمر بها مصير الأمة . » وقد عارض جريلي وغيره من الجمهوريين الذين ينادون بإلغاء الرق ، خطة لنكولن فى تحرير العبيد مقابل تعويض ، وحنقوا لأن الرئيس لم يتخذ الخطوة الجريئة لتحرير العبيد .

وفي خطابه المفتوح بعنوان « صلاة عشرين مليونا » عاتب جريلي الرئيس على خضوعه لسياسيي ولايات الحدود الذين أنسوه أن « الرق أينما كان هو الأصل الدافع للخيانة ودعامتها التى ترتكز عليها » .

وكان من الممكن أن يرد لنكولن على ذلك بأن يذكر أنه قرر فعلا تحرير العبيد ، وأنه قد سطر فعلا إعلانا بذلك ، وأنه إنما ينتظر اللحظة المناسبة لإعلانه ، ولكنه بدلا من ذلك كتب إلى جريلي يقول : « إن هدفى الأول فى هذا الصراع هو إنقاذ الاتحاد ، وليس إنقاذ الرق ولا القضاء عليه . وإذا أنا استطعت إنقاذ الاتحاد دون تحرير أى عبد فسأفعل ذلك »

وإذا استطعت إنقاذ الاتحاد بتحرير بعضهم وترك بعضهم الآخر ، فسأفعل ذلك أيضا ». ولكن عندما انتصر الاتحاد فى معركة أنتيتام فى سبتمبر عقد لنكولن مجلس وزرائه وأخبرهم أن الوقت قد حان لإصدار الإعلان. قال لهم :

« إن ما كتبته هو ما أملت على تأملاتى أن أقوله . وإذا كان فى العبارات التى استعملتها أو فى أى أمر ثانوى آخر ، ما يستحسن أحدكم تغييره . فسأكون مسروراً لتلقى اقتراحاته . على أن هناك ملاحظة أخرى أود أن أقدمها ، وهى أنى أعلم جيداً أن الكثيرين قد يستطيعون فى هذا الأمر كما يستطيعون فى غيره أن يعملوا خيراً مما أستطيع أن أعمل ، ولو اقتنعت أن أحدهم حائز على ثقة الأمة أكثر منى وكنت أعرف طريقة دستورية ما لوضعه فى مكانى ، لناله ، ولسلمته إليه مسروراً . ولكن بالرغم من أنى أعتقد أننى لا أملك من ثقة الشعب مثل ما كنت أملك فى وقت مضى ، فإنى بعد إمعان النظر لا أعرف شخصاً آخر يثق الشعب فيه أكثر منى . ومهما يكن من هذا الأمر فليست هناك طريقة يمكننى بها وضع رجل آخر فى مكانى . فأنا هنا ويجب أن أبذل أقصى ما أستطيع وأتحمل مسئولية السير فى الطريق الذى أعتقد أننى يجب أن أسلكه . »

وبينما كان لنكولن يقرأ فى مجلس الوزراء : « إنه فى اليوم الأول من يناير عام ألف وثمانمائة وثلاث وستين ، يصبح جميع الأشخاص الذين يعاملون كعبيد فى أى ولاية أو جزء معين من ولاية يكون سكانها أو سكانه فى ثورة ضد الولايات المتحدة — يصبحون منذ ذلك الحين وإلى الأبد أحرارا ، وإن الحكومة التنفيذية للولايات المتحدة بما فى ذلك سلطاتها العسكرية والبحرية ستعترف بحرية هؤلاء الأشخاص ، ولن تقوم بأى فعل أو أفعال من شأنها منع أولئك الأشخاص أو أى واحد منهم من القيام بأى جهد يرون القيام به للحصول على حريتهم الفعلية » ، قال وزير

الخارجية مقاطعاً : « أرى ياسيادة الرئيس أنه يحسن أن تضيف بعد كلمة تعترف فى هذه الفقرة كلمة « وتصون » . وقد وافق لنكولن على ذلك .

وفى ٢٢ سبتمبر ١٨٦٢ صدر الإعلان المبدئى لتحرير العبيد .

وبعد بضعة أسابيع علق الرئيس فى رسالته السنوية للكونجرس على إجرائه هذا بكلمات بليغة قال فيها :

« أيها المواطنون . لن نستطيع أن نهرب من التاريخ . فنحن أعضاء هذا الكونجرس وهذه الحكومة سنذكر على الرغم منا ، ولن يشفع لواحد منا بروز شخصيته ولا لآخر تضاؤلها . إن محنة النار التى نمر بها ستغمرنا بأضواء الشرف أو الخزى حتى آخر الأجيال . نحن نقول إننا فى جانب الاتحاد ، ولن ينسى العالم أننا نقول ذلك . ونحن نعرف كيف ننقذ الاتحاد والعالم يدرى أننا حقاً نعرف كيف ننقذه . نحن — الحاضرين هنا — نملك السلطة ونتحمل المسئولية ، وبمنحنا الحرية للعبيد نضمن الحرية للأحرار ، ولنا الشرف بما نعطى وبما نصون . سننقذ بشرف أو نضيع فى نذالة آخر آمال الدنيا وأفضلها . وقد تنجح وسائل أخرى ، ولكن هذه الوسيلة لا يمكن أن تخيب . إن الطريق واضح وسلمى وكريم وعادل ، طريق لو اتبعناه لهتف لنا العالم أبداً ، ولباركنا الله أبداً . »

وفى اليوم الأول من عام ١٨٦٣ ، وصل الإعلان النهائى إلى الجمهور بتحرير العبيد فى الولايات الثائرة . ويجب ألا ننسى أن إعلان تحرير العبيد لم يحرر العبيد إلا فى المناطق التى لم تكن لحكومة الاتحاد فيها سلطة بعد ، « ومع هذا كان ضربة خالدة من أجل الحرية الإنسانية » — كما قال الأستاذ نيفنز — « فهو لم يغير أهداف الحرب فقط بل رفع هذه الأهداف إلى مستوى أسمى ، وبإدخاله معنى خلقياً جديداً فى الصراع عمق عنصر العاطفة والإلهام الذى تردد فى كثير من كلمات لنكولن ، وجمع الفكر الحر فى بريطانيا والعالم على نصرة الاتحاد . »

على أن النقد الذى وجه إلى تلك الخطوة كان شديداً . فقد رآه المطالبون بالإلغاء والجمهوريون الراديكاليون غير كامل ، بينما هاجم الديمقراطيون أنصار الرق الرئيس الذى دعا الشمال إلى خوض الصراع من أجل الاتحاد بينما كان كل ما يبتغيه كما أظهر إعلانه هو القضاء على الرق .

ورأى لنكولن الذى كان دائماً يضع إصبعه على الرأى العام أن تلك الخطوة لم تقابل بارتياح .

زاد التذمر ضد الحكومة ، ونشأت جمعيات سرية تثير السخط على الرئيس ، وتدعو إلى التفاوض لعقد صلح ، وكان الضباط القائمون بالتجنيد يغتالون ، والمؤيدون المخلصون للحكومة يضايقون .

وكان ذوو الرءوس النحاسية (وهذا هو الاسم الذى أطلق على الشماليين المعارضين للحرب والعاطفين على الجنوب) يحركون شعور السخط . وقبض على كليمنت ل . ڤالانديجام ، وهو أحد زعماء تلك الجماعة ، وأودع السجن . وقد عدل لنكولن الحكم عليه إلى النفى خلف خطوط الانفصاليين. وعندما هوجم لنكولن كعدو من أعداء حرية الكلام قال : هل يجب أن أرمى بالرصاص جندياً صبياً ساذجا هرب من الجيش ، بينما يجب على ألا أمس شعرة من الداعية السياسى الذى يدعوه إلى الهرب ؟ »

وإذ كانت الانتخابات الجديدة تقترب فقد أرسل لنكولن خطابا إلى صديقه جيمس كونكلنج ليقرأ فى اجتماع حزب الاتحاد القومى بسبرنجفيلد ، وقد سمى هذا الخطاب « خطبة التحدى الأخيرة» وفيه ناشد المتشككين وحاول إقناع الناقدين بصحة مسلك الحكومة. قال لنكولن :

« هناك أشخاص لا يرضون عنى . ولهؤلاء أقول : أنتم تريدون السلم وتلومونني لأننا لم نحصل عليه . ولكن كيف يمكننا الحصول عليه ؟ ليس هناك سوى ثلاث طرق يمكن تصورها : أولها إخماد الثورة بقوة السلاح ، وهذا ما أحاول أن أفعله . فهل تؤيدونه ؟ إن كنتم كذلك فنحن متفقون .

أما إن كنتم غير موافقين فالطريقة الثانية هي التخلى عن الاتحاد ، وأنا ضد هذه الفكرة . فهل تؤيدونها ؟ إن كنتم مؤيدين لها فيجب أن تقولوا ذلك بوضوح . وإن كنتم لا تؤيدون استعمال القوة ولا تؤيدون حل الاتحاد فلا يبقى إلا تخيل نوع من الحل الوسط ، ولا أظن أن ثمة حلا وسطاً يصون الاتحاد ، يمكن الوصول إليه الآن . بل إن كل ما أعلمه يدعو إلى الاعتقاد بعكس ذلك تماما . »

وبعد أن أوضح أن « أى حل يوضع على الورق ولا يوافق عليه المسيطرون على جيش لى لا يمكن أن يكون مجدياً ، وصل إلى النقطة الرئيسية : « ولكنكم — ولنكن صرحاء — غير راضين عنى فيما يختص بالزنوج . ولعل هناك خلافا فى وجهة النظر بينكم وبينى فى هذا الموضوع ؛ فأنا ولا شك أرغب فى أن يكون جميع الناس أحرارا أما أنتم فلعلكم لا ترغبون فى ذلك ، ومع هذا فأنا لم أتخذ أو أقترح أى إجراء لا يتمشى مع وجهة نظركم نفسها طالما أنتم فى جانب الاتحاد . لقد اقترحت تحرير العبيد مقابل تعويض ، وقد رددتم على ذلك بأنكم لا ترغبون فى أن نفرض عليكم ضرائب لشراء الزنوج ، ولكنى لم أطلب أن تفرض عليكم ضرائب لشراء الزنوج ، اللهم إلا بطريقة تحميكم من ضرائب أكبر لصيانة الاتحاد بطرق أخرى دون اللجوء إلى هذه الطريقة .

« أنتم لا تحبون إعلان تحرير العبيد ، ولعلكم تودون لو يسحب . وأنتم تقولون إنه غير دستورى وأنا أخالفكم الرأى ، فأنا أعتقد أن الدستور يخول قائده الأعلى فى زمن الحرب أن يسن قوانين الحرب . إن أكثر ما يمكن أن يقال — إن قيل — هو أن العبيد ملكية . فهل هناك أم هل كان هناك فى وقت ما أى شك فى أنه بحكم قانون الحرب يمكن أخذ ملكية العدو والصديق إذا احتاج الأمر ؟ أولسنا محتاجين إلى هذه الملكية كلما كان أخذها يساعدنا أو يؤذى العدو ؟ . . . »

« ولكن الإعلان بوصفه قانونا إما أن يكون شرعيا أو غير شرعي . فإن كان غير شرعي فلا حاجة إلى سحبه ، أما إذا كان شرعيا فلا يمكن سحبه أكثر مما يمكن أن يبعث الموتى . إن بعضكم يبدون رأيهم فى أن سحبه يمكن أن يكون فى صالح الاتحاد . ولكن لماذا يكون الحال أحسن بعد السحب مما كان قبل الإصدار ؟ لقد مضت أكثر من سنة ونصف سنة فى محاولة إخماد الثورة قبل إصدار الإعلان ، وانقضت آخر مائة يوم من هذه المدة فى تنبيه واضح إلى قرب إصداره إلا إذا تجنب الثوار ذلك بعودتهم إلى الطاعة . إن الحرب ولا شك قد سارت فى صالحنا منذ إصدار الإعلان كما سارت قبل إصداره . وإنى أعرف ، بقدر ما يمكن للإنسان أن يعرف آراء غيره ، أن بعض قواد جيوشنا فى الميدان ، الذين منحونا أهم انتصاراتنا ، يعتقدون أن سياسة تحرير العبيد واستخدام قوات من الملونين هى أقسى الضربات التى وجهت إلى الثورة حتى الآن ، وأن انتصارا واحدا على الأقل من تلك الانتصارات الهامة كان لا يمكن تحقيقه آنذاك لولا مساعدة الجنود السود . ومن بين القواد الذين يعتنقون هذه الآراء ، من لم تكن لهم فى يوم من الأيام صلة ما بما يسمى حركة إلغاء الرقيق أو بسياسة الحزب الجمهورى ، ولكنهم يعتقدونها بوصفها آراء حربية فحسب . وإننى أعرض هذه الآراء لأنها تستحق بعض الوزن إزاء الاعتراضات التى كثر ترديدها بأن تحرير العبيد وتسليح السود خطوتان غير حكيمتين من الناحية العسكرية — وأنهما لم تتخذا بالنظر إلى قيمتيهما العسكرية فى أمانة وإخلاص .

« تقولون إنكم لن تحاربوا من أجل تحرير الزنوج . إن بعضهم يبدو راغبا فى الحرب من أجلكم ، ولكن هذا لا يهم . حاربوا أنتم إذن من أجل إنقاذ الاتحاد فحسب . لقد أصدرت الإعلان عن قصد لأساعدكم على إنقاذ الاتحاد . وعندما يتم لكم النصر على كل مقاومة للاتحاد ، فسيكون الوقت مناسبا عند ذلك لتعلنوا أنكم لن تحاربوا من أجل تحرير الزنوج إن أنا دعوتكم للاستمرار فى الحرب . »

وأنهى الرئيس رسالته بقوله :

« إن السلام لا يبدو بعيداً كما كان يبدو من قبل . وإنى لأرجو أن يأتى قريباً ، وأن يدوم. أن يأتى بحيث يكون جديراً بالمحافظة عليه . حينذاك يكون قد ثبت أن دعوة لإبدال صناديق الرصاص من صناديق الانتخاب لا يمكن أن تنجح بين الرجال الأحرار ، وأن هؤلاء الذين تنادوا بمثل ذلك سيخسرون قضيتهم حتما وسيدفعون الثمن . ثم إنه سيكون هناك رجال من السود يستطيعون أن يتذكروا أنهم ساعدوا البشرية على تحقيق ذلك الفوز العظيم وهم صامتو الألسنة ، عاضون على النواجذ ، ثابتو العيون ، مستقيمو الحراب ، بينما أخشى أن يكون هناك بعض البيض الذين لا يستطيعون نسيان أنهم حاولوا عرقلة ذلك بأنشدتهم الشريرة وكلامهم الخداع . »

لقد سيطرت حجج لنكولن على كثير من العقول ، وهزم معارضو الحكومة هزيمة ساحقة ، وكان التصويت لصالح الاتحاد يكتسح جميع ولايات الشمال ماعدا نيوجرسى ، وفى أوهايو خسر كليمنت فالانديجام الديمقراطى ذو الرأس النحاسى الذى دعا ناخبى ولايته إلى تحطيم استبداد لنكولن وعقد الصلح مع الجنوب — خسر رياسة الولاية أمام منافسه بأكثر من مائة ألف صوت . وقد هلل لنكولن فى فرح قائلا : « المجد لله فى الأعالى . إن أوهايو أنقذت الأمة » .

٨ — خطبة جتسبرج :

فى ١٩ نوفمبر عام ١٨٦٣ كان مقرراً أن يقام احتفال بتكريس مقابر الجنود فى جتسبرج ، ولم تكن اللجنة المشرفة على تنظيم الاحتفال قد طلبت من الرئيس فى بادىء الأمر أن يلقى خطابا ، لأن السادة أعضاء تلك اللجنة الموقرة شككوا فى مقدرته على « أن يتكلم فى مثل هذه المناسبة العظيمة المهيبة » . ولكن عندما وجهت إليه دعوة متأخرة إلى أن « يلقى كلمات مناسبة فى تخصيص تلك الأرض بصفة رسمية لغرضها المقدس » استجاب لذلك راغبا .

وقد أعد خطابه بعناية كبيرة . والقصة التى تذكر أنه أعد ذلك الخطاب بينما كان يركب القطار فى طريقه إلى الاحتفال خرافة من الخرافات . فقد كتب الخطاب فى واشنطون وصممه . وحتى بعد أن وصل لنكولن إلى جتسبرج راجع الخطاب من جديد ، ولم ينته من مهمته حتى انتصف الليل ، فذهب إلى منزل الوزير سيوارد حيث قرأ عليه النسخة النهائية .

وفى اليوم التالى حضر إلى المدافن أكثر من خمسة عشر ألفاً ليستمعوا إلى إدوارد إيفريت الخطيب الأشهر والمتحدث الرئيسى فى الاحتفال . لقد جعل صوت إيفريت المدوى جمهور المستمعين مشدوهين مدة ساعتين كاملتين ، وكانت إشاراته تزيد من تأثير الاقتباسات الأدبية التى اشتملت عليها خطبته .

وأثناء خطاب إيفريت كان الرئيس يضع عينيه طول الوقت على خطابه المكتوب ، يقرأ ثم يعيد قراءة الصفحتين اللتين يتألف منهما الخطاب . وعندما انتهى إيفريت وقف لنكولن أمسك خطابه جيداً بكلتا يديه ، وكان صوته حاداً حين بدأ يتكلم :

« منذ سبعة وثمانين عاما أنشأ آباؤنا فى هـــذه القارة أمة جديدة . تخلقت فى الحرية ، ووهبوها المبدأ الذى ينادى بأن الناس ولدوا متساوين . »

وكانت هذه الكلمات تسمع بوضوح فى مكان الاحتفال حيث كان المستمعون يتجولون فى قلق .

« ونحن الآن فى حرب أهلية كبيرة ، تمتحن فيها مقدرة هذه الأمة على طول البقاء، أو أية أمة أخرى وجدت كما وجدت هذه الأمة ووهبت لما وهبت له . إننا نلتقى على أرض معركة كبيرة من معارك هذه الحرب . وقد جئنا لنكرس جزءاً من هذه الأرض مأوى نهائياً لأولئك الذين قدموا حياتهم هنا من أجل أن تحيا تلك الأمة . وما أحرانا أن نفعل ذلك . »

كانت لغة الرئيس البسيطة الخالية من المحسنات اللفظية تبدو جافة للرجال الذين وقفوا أمام المنصة بعد خطبة إيفريت المنمقة . واستمر الرئيس فى خطابه قائلا :

« ولكننا — إذا وسّعنا مفهوم الكلمة — لا نستطيع أن نكرس هذه الأرض ، لا نستطيع أن نقدسها ، لا نستطيع أن نمجدها . لقد قدسها الرجال الشجعان الأحياء منهم والأموات ، الذين ناضلوا هنا ، تقديساً أسمى بكثير من أن تستطيع قدرتنا الضعيفة أن تزيده أو تنقص منه . إن الدنيا لن تراعى كثيراً ولن تتذكر طويلا ما نقوله فى هذا المكان ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تنسى ما فعلوه هم فى هذا المكان .

إننا نحن الأحياء أحرى بأن نكرس أنفسنا فى هذا المكان للعمل الذى لم يتم بعد ، والذى جاهد من أجله بشرف أولئك الذين حاربوا هنا .

نحن أحرى أن نهب أنفسنا للمهمة العظيمة الباقية أمامنا — أن نستمد من هؤلاء الموتى المكرّمين مزيداً من الإخلاص للهدف الذى هبوه

أقصى غاية الإخلاص . أن نعقد العزم هنا على ألا يكون هؤلاء الذين ماتوا قد ماتوا عبثاً أن تولد هذه الأمة ، برعاية من الله مولداً جديداً في الحرية ، وألا يمحى من الأرض حكم الشعب بالشعب للشعب . »

وهكذا انتهت الخطبة . لقد تكلم لنكولن مدة تقل عن ثلاث دقائق ، لم يكن لدى المصور الذى وقف أمامه الوقت الكافى لتركيز عدسته ووضع لوحة الفيلم فى آلة التصوير وأخذ الصورة . لقد كاد الخطاب ينتهى قبل أن يبدأ .

وعلى المنصة همس إدوارد إيفريت إلى وزير الخارجية سيوارد : ليس هذا ما توقعته منه . لقد خيب ظنى (وقد ظن سيوارد كذلك أن الرئيس قد فشل . . . وأن خطابه لم يكن فى مستواه)

وقد أحسّ لنكولن نفسه عدم ارتياح لخطابه ، وظن أنه « أخطأ لهدف » ، وأنه كان «بارد الموقع عند الجمهور» ، ولام نفسه فيما بعد بقوله : «كان يجب أن أعده بعناية أكثر » .

ولم ترض الصحف أيضاً عن خطاب الرئيس فى جتسبرج ، وكتبت صحيفة هاريسبرج المجاورة : « إننا نمر كراما على ملاحظات الرئيس التافهة . فنحن راغبون من أجل سمعة هذه الأمة فى أن يسدل عليها ستار النسيان ، وألا تذكر مرة ثانية ، أو يفكر أحد فيها . » وقال مراسل جريدة التايمز اللندنية : « لقد أصبح الاحتفال مضحكا نتيجة لبعض ملاحظات من ذلك الرئيس المسكين لنكولن ، الذى يبدو مصراً على أن يلعب فى ذلك الاتحاد الأمريكى العظيم دور حاكم باراتريا[1] الشهير . . . . . فلم يكن من السهل تأليف خطاب أكثر من ذلك غباء وتفاهة . »

---

(١) باراتريا : خليج قرب مصب المسيسبى كان يأوى إليه القرصان « جان لافيت» ورجاله فى أوائل القرن التاسع عشر . (المراجع)

وجاءت أول كلمة استحسان من جريدة «تربيون» فى شيكاجو ، وأعقبتها إحدى صحف ماساشوستس ، وهى صحيفة ريبابليكان التى تصدر فى سبرنجفيلد فقالت : «عد إلى قراءته مرة ثانية وسترى أنه خطاب نموذجى جدير بالدراسة . لقد أنتجته عواطف قوية وعقل كبير وأخرجته عناية غير عادية .»

٩ — موجة الجزر :

فى طريق العودة من جتسبرج أصيب لنكولن إصابة خفيفة بالجدرى ولما وصل إلى العاصمة ألغيت جميع مقابلاته ، وأبعدت قطعان طالبى الوظائف . وقد قال ضاحكا :

« من المؤسف أن يكون لدى الآن شىء أستطيع أن أعطيه لكل إنسان » .

وبينما كان طريح الفراش جاءت الأنباء من الجنرال جرانت أن « قمة جبل لوكاوت ، وكل خنادق شتانوجا ، ومشانرى ريدج جميعها ، هى الآن فى أيدينا » وكانت هزيمة الانفصاليين فى جورجيا تامة .

لقد أصبح جرانت ابن دباغ الجلود بإلينوى ، جرانت مدمن الشراب الكتوم ذو العزيمة والإصرار ، جرانت الرجل الضئيل الذى تقتحمه العين ، ذو العينين النافذتين والوجه الذى يتدلى الشعر الكث على عارضيه هو بطل اليوم . وقد تعالت الصيحات بتعيينه على رأس الجيش ووافق الرئيس على ذلك مسروراً .

وفى مارس ١٨٦٤ سافر يوليس س . جرانت القائد العام الجديد إلى واشنطون ليتلقى ذلك الشرف ويقابل الرئيس والقائد لأول مرة . وأبلغه لنكولن أنه يستطيع أن يضع خططه دون خوف من أى تدخل ، وأوضح للقائد « أنه لم يدّع إطلاقا أنه رجل عسكرى ، أو يعرف كيف ينبغى إدارة المعارك ، وأنه لم يرغب قط فى التدخل فيها ، ولكن التسويف من جانب القواد والضغط المستمر من جانب سكان الشمال والكونجرس هما اللذان اضطراه إلى إصدار سلسلة أوامره العسكرية : رقم واحد واثنين وثلاثة إلخ . إنه لا يدرى أكلها كانت خاطئة ؟ ولكنه يعرف خطأ بعضها . وكل ما كان

يرغب فيه هو أن يجد الشخص الذى يضطلع بالمسئولية ويعمل ، ويلجأ إليه فى طلب المعونة اللازمة ، وتعهد بأن يضع جميع قوى الدولة فى سبيل تقديم تلك المعونة . »

كان الرئيس يثق فى القائد الأعلى الجديد ، وكان جرانت منصرفا بكل تفكيره إلى الرغبة فى إنهاء الحرب نهاية ظافرة وعاجلة .

وكانت خطته هى أن يستخدم جميع القوات التى تحت إمرته ، وأن يضيق الخناق على القوات الانفصالية ويجهدها . وقد قدم اقتراحا بالقيام بثلاث عمليات كبيرة فى وقت واحد : وهى أن يهاجم ميد بجيش البوتوماك قوات لى ، وأن يحطم بتلر بجيش جيمس مواصلات لى ويحاصر ريتشموند ، وأن يحارب شيرمان بجيش التنيسى قوات جونستون ويتقدم إلى أتلانتا .

وفى أوائل شهر مايو بدأ الزحف . وقد رد جرانت على تمنيات لنكولن الطيبة بقوله المقتضب السديد : « إذا جاء نجاحى أقل مما أرغب وأتوقع فإن أقل مايمكن أن أقوله هو أن الخطأ ليس خطأك . »

لقد استمرت الحرب عدة أسابيع فى (البرية) — كما كانت تسمى المنطقة الواقعة جنوب نهر رابيدان ، وحارب الجيشان فى غابات فرجينيا الكثيفة بعناد يائس — لقد كان عدد رجال الاتحاد ضعف عدد رجال الانفصاليين ، ولكن الأرض كانت فى صف الفريق الأخير ، فلم يكن لمدفعية الاتحاد أثر فى الغابات الكثيفة ، وكان عدد القتلى مخيفاً ، فقد خسر الاتحاد خمسين ألف رجل ، ومع هذا لم تلح النهاية فى الأفق .

وفى الأسبوع الثانى من شهر يونية ، وبعد اللقاء الدموى فى كولدهاربر غيّر جرانت خطته ، فسحب قواته من ضواحى ريتشموند ووجهها إلى جنوب شبه الجزيرة ، ثم سيرها من هناك صوب بطرسبرج . وكان يرمى إلى عزل ريتشموند عن بقية القوات الانفصالية وقد أبرق إليه لنكولن : « بدأت الآن أرى خطتك : ستنجح — الله معكم جميعاً » .

ولكن «لى» أوقف خصمه قبل بطرسبرج . وقد وردت نصيحة لنكولن بصدد خطة جرانت فى أن يقوم « بجهد مستقتل » على النحو التالى : « نظرا لأن مرور الوقت يرهقنا ، فإننى سعيد لسماعك تقول هذا ، ومع ذلك أرجو أن تجد طريقة لا يكون معها المجهود مستقتلا من ناحية الخسارة الجسيمة فى الأرواح . »

بدأ حصار عاصمة الانفصاليين ، وحفرت قوات الاتحاد الخنادق أمام بطرسبرج ، وكان جرانت قد قال إنه سينهى الحرب على ذلك الخط « ولو استغرقت الصيف كله » ولكنها استغرقت الصيف والشتاء معاً . وظل الجيش فى الخنادق لمدة عشرة أشهر من يونية ١٨٦٤ حتى أبريل ١٨٦٥ ، ينسف خطوط تموين «لى» ويهاجمها . وأبرق لنكولن إلى جرانت : «اثبت فى مكانك واقبض عليه بكلتا يديك وقم بهرسهم وخنقهم على قدر ما تستطيع . »

كان شهرا يولية وأغسطس سنة ١٨٦٤ هما أحلك شهور الحرب ، وقد سئم الناس الصراع ، وسئموا التضحية المستمرة . ووُجّه اللوم إلى الرئيس لحملة (البرية) التى كلفت أرواحا كثيرة ، وتجدد الهجوم عليه بمزيد من الحدة .

ومرة أخرى يلومه هوراس جريلى لعدم محاولته الوصول إلى سلام عن طريق التفاوض . وقد أجاب الرئيس على مذكرة جريلى بشأن مبعوثى الانفصاليين الذين قيل إنهم ينتظرون للتفاوض عند الجانب الكندى لشلالات نياجرا : « إن استطعت أن تجد إنسانا فى أى مكان يحمل عرضاً مكتوباً من جيفرسون ديفز[1] من أجل السلام ويتضمن إعادة الاتحاد وإلغاء الرق . . . . فقل له إنه يستطيع أن يحضر إلىّ معك » .

---

(١) رئيس الاتحاد الاستقلالى . الذى تألف من الولايات الجنوبية . (المراجع)

وعندما أرسل جريلى مذكرة أخرى رد الرئيس عليها باقتضاب : « لم أكن أتوقع منك أن ترسل لى خطابا بل توقعت أن تحضر رجلا أو رجالا » .

وهكذا ألزمه الحجة . وقال له : « أنا لا أرغب فقط فى بذل جهد مخلص من أجل السلام ولكنى أرغب أن تكون أنت شاهد عيان يرى بنفسه أن ذلك المجهود يبذل فعلا » . وهكذا ارتحل جريلى إلى شلالات نياجرا ليجد أن مبعوثى الانفصاليين لم تكن لديهم سلطة التحدث باسم الجنوب .

واستغل الجمهوريون المتطرفون فى الكونجرس الشعور العام بالسخط ضد الرئيس ، وقدموا لائحة بإلغاء مشروع لنكولن للعفو العام وإعادة البناء . فنى أوائل ديسمبر ١٨٦٣ أصدر لنكولن إعلانا ذكر فيه أنه سيعفو عن جميع الأشخاص الذين اشتركوا فى الثورة بشرط أن يقسموا يمين الولاء للدستور وأن يقسموا على تأييد إعلان تحرير العبيد وجميع قرارات الكونجرس التى تتصل بالعبيد . وقد وعد الرئيس بأنه «عندما يكون فى أى ولاية من ولايات أركنساس أو تكساس أو لويزيانا أو مسيسبى أو تنيسى أو ألباما أو جورجيا أو فلوريدا أو كارولينا الجنوبية أو كارولينا الشمالية ، عدد من الأشخاص ، لا يقل عن عشر عدد الأصوات التى أعطيت فى هذه الولاية فى انتخابات الرياسة لعام ١٨٦٠ ، يريدون إعادة تكوين حكومة ديمقراطية فإن تلك الحكومة «سيعترف بها على أنها هى الحكومة الحقيقية للولاية» وستلقى حماية من الاتحاد ضد الغزو والعنف المحلى » .

ومع هذا فإن مشروع الجمهوريين المتطرفين والمعروف باسم مشروع ويد — ديفز اشترط ألا يعلن عشر الأصوات فقط ولاءهم للاتحاد بل أن تعلن أغلبية الناخبين ذلك قبل أن تقبل الولاية المنشقة فى حظيرة

الاتحاد من جديد ، وألا يسمح لأى شخص شغل مركزا فى حكومة الثورة أو حمل السلاح بمشيئته ضد الولايات المتحدة أن يدلى بصوته.

وضع لنكولن مشروع المتطرفين فى جيبه وأعلن أنه لن يهمل دستور الولاية الحرة وحكومتها فى كل من لويزيانا وأركنساس ، كما أنه لن يعترف بأن الكونجرس له سلطة إلغاء الرق فى الولايات .

وقد رد المتطرفون على ذلك ببيان هاجموا فيه سياسة الرئيس فى إعادة البناء ، واتهموه بأنه اعترف فقط بحكومتى أركنساس ولويزيانا لأنه فى حاجة إلى أصواتهما لإعادة انتخابه . وأحس لنكولن بالوخزة إحساساً عميقاً . فقد اشتكى إلى صحفى صديق بقوله : « عندما يجرح الإنسان فى منزل أصدقائه ، فهذه أفدح مصيبة يمكن أن تحل به . »

١٠ — إعادة انتخابه :

فى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٨٦٣ كتب إليهو واشبرن عضو الكونجرس عن ولاية إلينوى إلى الرئيس يقول : « على الرغم من المتاعب التى تحيط بنا فقد آن الأوان لكى نواجه مشكلة مرشحنا القادم للرياسة . وإنى أعتقد أنه يجب عليك أن تطلع بعض أصدقائك المخلصين على رغباتك . » وأجاب لنكولن بقوله . « إن دورة ثانية فى الرياسة ستكون شرفا عظيما وجهداً كبيراً — قد لا أستطيع أن أرفضهما معاً إن عرضا على »

لقد كان يرغب فى دورة ثانية ليكمل المهمة التى بدأها ، وهى إنهاء الحرب وإرجاع الاتحاد وإعادة الولايات المنشقة تحت اللواء مرة ثانية دون ضغينة أو تمييز . ومع هذا فعندما أشرف عام ١٨٦٤ كانت البشائر مظلمة . فقد عارض كثير من أكبر الجمهوريين نفوذا فى انتخابه مرة ثانية .

وكان سلمون تشيس وزير الخزانة يعتقد أن « الذى يحتاج إليه للسنوات الأربع القادمة رجل له صفات مغايرة لصفات الرئيس . » وإذ تصور أنه هو نفسه من ذلك الطراز المطلوب بعينه ، فقد سمح لأصدقائه أن ينظموا حركة لمصلحته . وفى أوائل فبراير أصدر السناتور صامويل بوميروى من كنساس وهو أحد مؤيدى تشيس منشوراً دورياً يعلن فيه أن قضية الحرية والاتحاد ستخسر إذا أعيد انتخاب الرئيس ، وأن المبدأ السليم القائل بالانتخاب لدورة واحدة والذى روعى بأمانة فى الولايات المتحدة منذ انتخاب أندرو جاكسون عام ١٨٣٢ هو سياج لتنظيم الجمهورية . وقد أعلن بوميروى عن تكوين منظمة مركزية كى يهيء لأصدقاء تشيس « أن يعاونوا بأنجح الطرق على دفعه إلى الرئاسة . »

وعنــدما عرفت محتويات المنشور الذى وزع فى دائرة خاصة ،

أنكر تشيس الذى أفزعه الموقف معرفته به وقدم استقالته . وأجاب لنكولن على استقالته قائلا « إن أمر بقائك على رأس وزارة الخزانة أمرلا أسمح لنفسى بالبحث فيه من أية زاوية عدا تقديرى للخدمة العامة ، ومن هذه الناحية لا أرى مناسبة للتغيير . »

لقد ساعد المنشور الرئيس بدلا من الإضرار به . فقد نظم مؤيدوه صفوفهم ، وتوالت مؤتمرات الولايات الواحد تلو الآخر مؤيدة إعادة ترشيحه .

على أن جماعة مغرورة من الجمهوريين المتطرفين كانت ما تزال تعتقد أنها تستطيع أن تمنع ترشيحه بتقديم اقتراح بتأجيل المؤتمر العام ، آملين أن تؤدى بعض نكسات الحرب إلى انقلاب البلاد على الرئيس . وقد ادعى هوراس جريلى أنه ليس تشيس فحسب الذى يمكن أن يكون رئيسا مساويا للنكولن فى الكفاءة ، بل هناك أيضا فريمونت أو بتلر أوجرانت، واقترح ترشيح أحدهم صوناً « لمبدأ الدورة الواحدة السليم » ، الذى طبق خلال الثلاثين سنة الأخيرة . ولما لم يكن لبتلر سند حقيقى ، ورفض جرانت أن يرشح نفسه ، اتجه أعداء لنكولن إلى الجنرال س . فريمونت ، مرشح الجمهوريين للرئاسة عام ١٨٥٦ . وفى مؤتمر بكليفند عقده « الديمقراطيون الراديكاليون» — كما سمى الجمهوريون المنشقون أنفسهم — وقع الاختيار على فريمونت ليكون مرشحهم . وقبل فريمونت ذلك الشرف ، وقال فى إحدى خطبه: إنه إذا أعيد ترشيح الرئيس « فلن يكون ثمة بد من أن تعبأ ضده كل عناصر المعارضة المستنيرة لتجنب كارثة إعادة انتخابه » .

وقد ضحك لنكولن عندما علم أنه لم يكن هناك سوى أربعمائة شخص فى مؤتمر المتطرفين ، وفتح الكتاب المقدس وقرأ فقرة سفر صمويل : « واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا وكان معه نحو أربعمائة رجل . » وبعد ذلك بأسبوع

اجتمع الاتحاديون الوطنيون — وهـــذا هو الاسم الجديد المؤقت للجمهوريين — فى بلتيمور وأعادوا ترشيح لنكولن .

وقال الرئيس مجيبا على وفدمن عصبة الاتحاد الوطنى جاء ليقدم أطيب تمنياته : « أنا لا أسمح لنفسى بافتراض أن المؤتمر أو العصبة استقر رأى أى منهما على أنى أعظم رجل أو أفضل رجل فى أمريكا ، ولكن المرجح أنهم قد استقر رأيهم على أنه لا يحسن تغيير الحصان أثناء عبور النهر ، ثم استقر رأيهم أنى لست بالحصان الضعيف حتى إنهم لا يخشون الخطأ إذا حاولوا أن يبدلوه . »

ولكن إعادة ترشيح لنكولن بصفة رسمية لم تضع بحد ذاتها نهاية للحركة المناهضة له . فقد تألبت جماعة من الصحفيين والسياسيين الجمهوريين محاولين إرغامه على سحب ترشيحه . وقدموا اقتراحا بعقد مؤتمر فى سنسناتى للموافقة على مرشح حائز على ثقة البلاد ، « حتى لو استلزم ذلك ترشيحا جديداً » .

وادعى هوراس جريلى أن المستر لنكولن قد هزم فعلا . وهو لا يمكن أن ينتخب ، ويجب أن تكون لنا ورقة أخرى تحمينا من الانهيار . وإذا كانت لدينا ورقة أخرى — وهذا ما يمكن أن نعمله بترشيح جرانت أو بتلر أو شيرمان للرئاسة وفاراجوت نائبا للرئيس — فلا تزال أمامنا فرصة لكسب المعركة . إن مثل هذه الورقة يجب أن نحصل عليها مهما تكن الحال ، بمؤتمر أو بدون مؤتمر » .

وكان أنصار لنكولن فى حالة نفسية قلقة . فقد روعت البلاد الهزائم العسكرية والعدد الهائل من القتلى فى حملة (البرية) ، وكان جيش شيرمان قد أوقف أمام أتلانتا ، وقال هنرى رايموند محرر جريدة نيويورك تيمز ورئيس اللجنة الوطنية الجمهورية للرئيس لنكولن فى برود : « إن التيار

ضدنا » وقرر أن « البلبلة قد انتشرت فى البلاد لما يظن الناس من أننا نستطيع الحصول على السلام والاتحاد إذا رغبنا فى ذلك » .

ولهذا اقترح رايموند تعيين لجنة سلام للتفاوض مع حكومة الثوار ، فإذا مااعترف جيفرسون وأقر بسيادة الدستور فإن جميع المسائل الأخرى يمكن تسويتها فى مؤتمر يمثل فيه كل من الشمال والجنوب .

أعد الرئيس نفسه للهزيمة . وقبل أن يلتقى الديمقراطيون فى مؤتمرهم الخاص بالترشيح بأسبوع واحد ، وعندما أصبح معلوما للجميع أن مرشحهم سيكون الجنرال ماكلان ، سطر لنكولن مايأتى على قطعة من الورق : « يبدو فى هذا الصباح ، كما بدا فى أيام خلت ، أنه من المحتمل جدا ألا يعاد انتخاب هذه الحكومة . وعلى هذا سيكون من واجبى أن أتعاون مع الرئيس المنتخب لكى نصون الاتحاد فى الفترة بين الانتخاب والتنصيب ، وذلك لأنه سيفوز فى الانتخاب على أسس لن تمكنه بأى حال من أن يصون الاتحاد بعد ذلك . »

وبدون أن يعرض على مجلس الوزراء ما كتبه، طلب من أعضاء أسرته السياسية أن يوقعوا على ظهر الوثيقة .

وقد شرح لهم فيما بعد لماذا طلب منهم ذلك قائلا : « لقد أزمعت إذا ما انتخب الجنرال ماكلان — فقد كنت واثقا أنه سيكون المرشح — أن أقابله وأناقش الأمر معه . سأقول له : لقد أوضحت الانتخابات أيها الجنرال أنك أقوى منى ، وتأثيرك على الشعب الأميركى أكبر من تأثيرى. والآن يجب أن نتكاتف معا ، أنت بنفوذك وأنا بكل القوة التنفيذية للحكومة ، فى محاولة لإنقاذ البلاد ، فأنت تعبىء من القوات ما تستطيع لهذه المحاولة الأخيرة ، وأنا أكرس جميع أوجه نشاطى للمساعدة على إنهاء الحرب .

وقد أعلن الديمقراطيون فى بيانهم أنه « بعد أربعة أعوام من الفشل

فى إعادة الاتحاد بتجربة الحرب . . . . يتطلب الصالح العام أن تبذل الجهود فورا لإنهاء المعارك بغية إعادة السلام فى أول فرصة عملية على أساس الاتحاد الفدرالى للولايات». وكى يضع الديمقراطيون هذه السياسة موضع التنفيذ ، وقع اختيارهم على الجنرال جورج . ب . ماكلان .

لقد قبل «ماك الصغير» الترشيح ، ولكنه رفض البيان وكتب ما يأتى : «إننى لا أستطيع أن أنظر فى وجوه رفاقى الشجعان فى الجيش والأسطول ، ممن عاشوا بعد هذه المعارك الدموية الكثيرة ، وأقول لهم : إن جهودهم وتضحيات العدد الكثير من إخواننا الذين ذبحوا وجرحوا قد ضاعت هباء ، أو أقول لهم إننا تخلينا عن الاتحاد الذى من أجله خاطرنا مرارا بأرواحنا . » لقد كان رأى ماكلان « أن السلام لا يمكن أن يدوم بدون الاتحاد . »

ولم يكد مؤتمر الديمقراطيين ينفض حتى جاءت الأخبار بأن شيرمان قد استولى على أتلانتا . وكان اقتران ذلك الانتصار بانتصار الأميرال فاراجوت فى خليج موبيل ، سببا فى تحويل التيار لصالح لنكولن . وقال سيوارد متعجبا ! . لقد حطم شيرمان وفاراجوت قاعدة مرشحى شيكاغو » وهكذا ضعف منافسو الرئيس إلى عربته ، وجاء تشيس يطلب الصلح ، وعاد جريلى إلى الحظيرة أيضا ، وقد سكت عن الدعوة إلى التفاوض من أجل الصلح . وسحب المتطرفون ترشيح فريمونت ، وفى مقابل ذلك أقصى لنكولن مونتجومرى بلير عن الوزارة ، وكان بلير لفترة طويلة شوكة فى جنوب المتطرفين .

وعندما جاء شهر أكتوبر ، استطاع تشيس أن يقول :

« ليس هناك الآن أدنى شك فى إعادة انتخاب المستر لنكولن . والسؤال الوحيد هو بأى أغلبية شعبية وانتخابية يكون ذلك . نسأل الله أن تكون الأغلبيتان حاسمتين كى ينقلب كل أمل للثورة إلى يأس ! »

لقد كان النصر فى الانتخاب حاسماً ، فحصل لنكولن على ٢٫٢١٣٫٦٦٥ صوتاً شعبياً مقابل ١٫٨٠٢٫٢٣٧ صوتا نالها ماكللان ، وكانت أصوات الجنود التى تم فرزها على انفراد فى صالح الرئيس فقد نال منها ١١٦٫٨٧٧ صوتاً مقابل ٣٣٫٧٤٨ صوتاً نالها ماكلان .

وكتب رالف والدو إمرسون إلى أحد أصدقائه يقول : «أبعث إليك بفرحة الانتخاب ، فقلما حدث فى التاريخ أن علقت أمور عظيمة كهذه بتصويت شعبي . بل أظن أن ذلك لم يحدث فى التاريخ . »

قال لنكولن مُفكراً للجموع المرحّبة التى أتت لتهنئته : لقد طال العهد على هذا السؤال الخطير : هل تستطيع حكومة ما ليست بالقوة التى تُكبح حريات شعبها — أن تكون قوية لدرجة تمكنها من أن تحمى بقاءها فى الطوارىء الخطيرة ؟ وفى هذا الشأن وضعت القوة الحاضرة جمهوريتنا فى اختبار شديد ، ولم يكن الجهد الذى أضافته انتخابات الرياسة التى تمت فى موعدها العادى وإبان الثورة بالجهد القليل .

« إذا كانت الثورة قد دفعت المخلصين لاتحادهم إلى أقصى مدى قوتهم ، أفليس من المحتم إذن أن يفشلوا حينما ينقسمون على أنفسهم ، ويُشلوا شللا جزئياً من الحرب السياسية فيما بينهم ؟ ولكن الانتخابات كانت ضرورة . ونحن لايمكن أن تكون لنا حكومة حرة بدون انتخابات ، ولو استطاعت الثورة أن ترغمنا على التخلى عن انتخاب عام أو تأجيله ، لكان لها أن تدعى صادقة أنها قهرتنا وحطمتنا . »

وقد حدد الرئيس أفكاره قائلا : « إن الانتخاب بما فيه من كفاح مؤقت وغير مرغوب فيه ، قد أدى لنا خيراً كبيراً . فقد أوضح أن حكومة الشعب تستطيع أن تتحمل انتخاباً عاماً وسط

حرب أهلية كبيرة . وحتى الآن لم يكن العالم يعرف أن ذلك ممكن ، وقد أوضحت الانتخابات كذلك كيف أننا ما زلنا أصحاء وأقوياء . . »

لقد كان واثقاً بالمستقبل ، واثقاً أن الأمة سرعان ما ستتحد مرة اخرى . . . . وكان إيمانه يضيء بنور مشرق .

١١ — يوم من أيامه :

كان يصحو من نومه مبكرا ، وما إن تحين الساعة الثامنة حتى يكون قد انتهى من إفطاره المكون من فنجان من القهوة وبيضة واحدة وقطعة من الخبز المسخن ثم ينظر فى بريده . ويذكر سكرتيره جون هاى أنه «كان يكتب عددا قليلا من الخطابات . . . ولم يكن يقرأ خطاباً واحداً من كل خمسين خطاباً يتلقاه . . . . لقدكان يكتب بنفسه حوالى ستة خطابات فى الأسبوع لا أكثر» . وكان يوم العمل الرسمى عنده يبدأ فى الساعة العاشرة صباحاً ، ولكن الحجرات المجاورة لمكتبه والردهات تكون قد غصت بالناس قبل تلك الساعة بوقت طويل . لقد كان فى أول الأمر يرى طلاب الوظائف فى أى ساعة من النهار تقريبا ، ولكن عند ما زاد عددهم حددت ساعات الزيارة من الساعة العاشرة صباحا إلى الساعة الثالثة ، ثم من العاشرة إلى الواحدة . ولكن لنكولن لم يكن بالرجل الذى يراعى مثل هذه القواعد ، فلم يكن يعبأ بالنظام ولم يكن رجل أعمال ، ويذكر سكرتيره ما يأتى:

« لقد كان يخرق كل قاعدة بمجرد أن توضع ، وكان لا يوافق على أى شىء يبعد الناس عنه وإن كادوا يزهقون روحه بشكاواهم ومطالبهم غير المعقولة . »

وكان أعضاء الوزارة هم أصحاب الحق الأول فى وقته ، ويليهم أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ، وكانوا يحضرون فى أغلب الأحيان بصحبة ناخبيهم . وفى أيام الثلاثاء والجمع كانت تختصر « حمامات الرأى العام » لأن مجلس الوزراء كان ينعقد فى هذين اليومين .

وفى الظهيرة كان يشق طريقه وسط الزحام إلى حجرات سكنه حيث

يتناول غداء خفيفاً مكوناً من البسكوت والفواكه وكوب من اللبن ، ثم يعود إلى مكتبه حيث يكون فى انتظاره مزيد من العمل .

وكان يخرج للنزهة فى الساعة الرابعة مع مارى ، ويمران أحيانا بمستشفى من المستشفيات حيث كان يتحدث إلى الجرحى من الجنود . وكان يتناول عشاءه بين الساعة الخامسة والسادسة .

لقد كان يأكل القليل ولا يهتم بطريقة إعداد الطعام . ولم يكن يتناول مشروبات قوية ، وإن تساهل أحياناً فى شرب كوب من البيرة أو النبيذ . ولم يكن يدخن قط .

وكانت تقام فى البيت الأبيض مرة كل أسبوع باستثناء أشهر الصيف حين كان آل لنكولن يقيمون « فى بيت الجنود » خارج المدينة — سهرة أو استقبال رسمى يحضره مئات من الزوار . أما فى الأمسيات الأخرى فكنت تراه جالساً إلى مكتبه . وقبل أن يأوى إلى فراشه — وكان ذلك عادة فيما بين العاشرة والحادية عشرة — يسير إلى وزارة الحربية ليقرأ الرسائل الواردة من الجبهة . أما إذا كانت هناك معارك مهمة فإنه ينتظر فى مكتب التلغراف حتى الساعات المبكرة من الصباح .

وكان الأصدقاء يأتون لزيارته بانتظام فى المساء فيقرأ لهم بعض أشعار شكسبير أو روبرت بيرنز أو بعض أعمال الكتاب الفكاهيين المعاصرين .

وكان يحب الموسيقى ذات الجرس العاطفى الحزين . ويغنى له وارد هيل لامون فى أغلب الأحيان بعض الأغنيات الشعبية ويطرب لأنغام ستيفن فوستر .

وكان مغرماً بالمسرح والأوبرا ، يحس دائماً بحاجته إلى

التغيير ، ويقول فى هذا الصدد : « يجب أن أحصل على تغيير من نوع ما أو أموت . . »

ولم يكن ينام نوماً عميقاً بل يضطجع فى السرير ساعات طويلة . وكان ابنه الصغير تاد ينام معه عادة . وفى الأمسيات يحضر الصبى إلى المكتب ويظل هناك حتى يغلبه النعاس ويحمله لنكولن إلى غرفة النوم .

١٢ ــ أخلاقه :

كان لنكولن يبدو بسيطا ، ولكنه مع هذا كان معقدا . كان يتحدث قليلا ، ويفكر كثيرا ؛ يقرأ قليلا ، ولكنه يعرف كثيرا . وقد قال مرة: « أنا بطيء فى التعليم وبطيء فى نسيان ما تعلمته . إن عقلى أشبه بقطعة من الصلب : من الصعب جداً أن تخط فيها أثرا ، ويكاد يكون من المستحيل أن تمحوه بعد أن تحدثه . »

وكان يحب إذا قرأ شيئا أن يرفع صوته به . وعندما سئل عن هذه العادة أجاب بقوله : « أنا ألتقط الفكرة بحاستين : ذلك أننى عندما أقرأ بصوت مرتفع أسمع ما أقرأه وأراه ، وبذا تلتقطه حاستان ، فأحسن تذكره إن لم أحسن فهمه » .

وكان رحيما ، كبير القلب ، رابط الجأش ، لين الجانب ، ولكنه لم يكن يعرف التواضع الكاذب ، فقد كان لمعرفته لمواهبه واثقاً من امتيازه .

وقال جون هاى الذى لاحظه عدة سنين : إنه من السخف أن ننعت لنكولن بالتواضع . « فليس هناك رجل عظيم متواضع ، ولقد كان صلفه الذهنى ومعرفته اللاشعورية بأفضليته هما اللذان جعلا رجالا من أمثال تشيس وساهنر لا يغفرون له أبدا . »

ولم يكن للمال تأثير كبير فى حياته ، ولو أنه كان حسن التصرف فيه . وقد ترك بعد موته حوالى ٩٠ ألف دولار ، زادت تحت إدارة القاضى دافيد دافيز حتى وصلت إلى ٦٢ ر ٩٧٤ ر ١١٠ دولارا .

وكان يفتقر إلى كثير من الحنكة فى الإدارة ، فلم يحدث أى نوع من التنسيق بين الإدارات التنفيذية ، وكانت علاقاته مع الكونجرس أسوأ

ما يمكن ، فلم تكن له موهبة كسب ثقة السياسيين الذين يعارضونه .

لقد كان يؤمن بالشعب ، يؤمن بجوهر الطيبة فى البشر ، وكان يؤمن بالديمقراطية ويعتقد « أننا إذا وثقنا بالشعب حقا ، ووثقنا به ثقة كاملة ، فإنه سيبادلنا الثقة . » وقال : « إذا تركنا أمور الشعب فى يديه فلا يمكن أن نخطىء . » وكان يعتقد كذلك « أن شعب هذه الولايات المتحدة هو السيد الحقيقى على الكونجرس والمحاكم ، لا لينبذ الدستور بل لينبذ الرجال الذين يحرفون الدستور . »

وكان يحاول أن يناشد عقولهم لا عواطفهم وأهواءهم . وقد قال هنرى كرولى : « إنه حين كان يخاطب الأمة كلها كان يخاطب فيها جانبها الأنبل وطبيعتها الأفضل » ويقال : إنه قال مرة فى إحدى خطبه بكلنتون (وإن لم يكن هناك دليل حقيقى على أنه قال ذلك فعلا) : « تستطيع أن تخدع بعض الناس طول الوقت ، وأن تخدع كل الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس طول الوقت . »

وقبل أن يصبح رئيسا بعدة سنين قال متأملا : « إن الهدف الشرعى للحكومة هو أن تعمل لمجتمع من الناس كل ما يحتاج ذلك المجتمع إلى عمله ولكنهم لا يستطيعون عمل ذلك لأنفسهم على الإطلاق أو كما يجب ، إن هم تركوا لمقدراتهم الفردية المنفصلة . أما ما يستطيع الناس إحسان أدائه لأنفسهم أفرادا ، فلا ينبغى للحكومة أن تتدخل فى شىء منه . »

وكان يستمع بصبر إلى قصص الصفوف الطويلة من النساء من زوجات الجنود وأمهاتهم اللاتى كن يذهبن إليه يطلبن الترقيات ، أو يلتمسن العفو عن أبنائهن وأزواجهن .

وكان يساعدهن كلما استطاع ، وكلما استطاع إنقاذ روح فعل ذلك . لقد كانت إحدى مذكراته لوزير الحربية كما يلى : « أرجو أن تتثبت من

رئيس أركان الحرب إن كان الملازم فى الكتيبة بالفرقة الثانية ، مشاة ، ألكسندر ذريك يستحق الترقية ؟ إن زوجته تعتقد أنه يستحقها» . ومذكرة أخرى تقول : « حضرت إلى اليوم زوجة الرائد بول من الجيش النظامى ، وناشدتنى أن أعين زوجها مقدماً . إنها امرأة سليطة وأخشى أن تظل تلح على حتى لا أجد بدا من تعيينه . » وهذه رسالة أرسلها إلى الجنرال ميد بعد خطاب جتسبرج بيوم واحد : « حضرت إلى صباح اليوم امرأة ذكية فى حالة حزن شديد ، وقالت : إن زوجها ، وهو ملازم فى جيش البوتوماك ، سيرمى بالرصاص لأنه هرب من الخدمة العسكرية . وقد وضعت فى يدى خطاباً اعتمدت عليه لمعرفة التفاصيل عن ذلك الملازم ، وخرجت دون أن تذكر اسماً أو تفصيلات أخرى يمكن منها الاستدلال على الحالة . . . إن كان لديك حالة ترجح أنها هى المقصودة فأرجو تطبيق رسالتى هذا الصباح عليها » .

وكانت بعض مذكراته لستانتون تفيض بالدعابة . فقد كتب لنكولن فى إحدى المذكرات التى ألغى فيها أحكام الإعدام على بعض الجنود الهاربين : « إن قتل هؤلاء المساكين سيرعبهم جدا . » كما يظهر من هذه المذكرات إلى أى حد كان يمكن أن يتشبث بموقفه . وهذه سلسلة من المذكرات تبودلت بين الرئيس ووزير خزانته :

عزيزى ستانتون :

عين هذا الرجل قسيساً فى الجيش .

ا . لنكولن

عزيزى مستر لنكولن :

إنه ليس واعظا .

ا . م . ستانتون

عزيزى ستانتون :

إنه الآن واعظ .

ا . م . لنكولن

عزيزى مستر لنكولن :

لا توجد وظيفة خالية .

ا . م . ستانتون

عزيزى ستانتون :

عينه قسيسا على غير وظيفة .

ا . لنكولن

عزيزى مستر لنكولن :

ليس فى القانون ما يسمح بهذا .

ا . م . ستانتون

عزيزى ستانتون :

عينه بأى شكل .

ا . لنكولن

عزيزى مستر لنكولن :

لن أفعل ذلك .

إ . م . ستانتون

ولكن ستانتون لم تكن له الكلمة الأخيرة دائما . فعندما قال له لنكولن إنا شخصيا أرغب فى تعيين جاكوب . ر . فريس من نيوجرسى مقدما بإحدى فرق الملونين ، بصرف النظر عما إذا كان يعرف اللون الحقيقى لشعر يوليوس قيصر أم لا ، لم يكن بد من تعيين فريس .

على أنه كان مبرءا من العداوة الشخصية ، فقد كان يعين رجالا فى المناصب العليا إذا اقتنع أن ذلك التعيين لمصلحة البلاد ، حتى ولو كان يعلم أنهم أعداؤه

الشخصيون وكان يكره المنازعات ، وقد قال : « ليس لدى المرء وقت ليضيع نصف عمره فى منازعات ، وإذا كف رجل عن مهاجمتى فإنى لن أتذكر ماضيه ضدى . »

وكان لين الجانب لا يؤرقه الشعور بالانتقام . وقد قال : « إننى رجل صبور ، وعلى استعداد دائما للصفح على أساس التوبة المسيحية . بل إننى على استعداد أن أسمح بوقت طويل للتوبة . » وقد نصح أحد قواده بقوله : « أحب ألا تفعل شيئا لمجرد الانتقام ، ولكن ليكن ما تفعله لتأمين المستقبل فقط . »

وقلما كان يفقد هدوءه . وقد كتب إلى الجنرال سيجل فى عام ١٨٦٣ : « إذا حدث أن ثرت قليلا ، فإنى لا أجد وقتاً كافياً للاستمرار فى الثورة . »

وكانت له قدرة على النمو . وقد قال عنه هوراس جريلى : « لعله لم يمر عليه عام فى حياته إلا وزاده حكمة وهدوءا وطيبة . »

وكان عطفه على الذين فقدوا أحباءهم فى الحرب يبعثه لكتابة رسائل تدل على عاطفة عميقة . فقد كتب إلى فانى ماكلتش ابنة الكولونيل وليمز ماكلتش من فرقة مشاة إلينوى الرابعة ما يأتى : —

عزيزتى فانى :

« علمت بمزيد من الأسى نبأ وفاة والدك الحنون الشجاع ، ومما يزيد حزنى أن وفاته تؤثر على قلبك الصغير أكثر من المألوف فى مثل هذه الحالات . وفى دنيانا هذه المليئة بالشقاء ، ينزل الحزن بالجميع ، وينزل على الصغار بأمض أنواع الألم ، لأنه يأخذهم على غرة . أما الكبار فإنهم تعلموا أن يتوقعوه دائماً . كم أود أن أخفف من أحزانك فى الوقت الحاضر ! ذلك أن السلوى الكاملة غير ممكنة إلا بمضى الزمن . أنت لا تستطيعين أن تتصورى الآن أن حزنك سيهدأ يوما ، أليس كذلك؟ ولكنك مخطئة.

فمن المؤكد أنك ستصبحين سعيدة مرة أخرى ،وإذا علمت ذلك ، وهو حقيقة لاشك فيها .فإنك تصبحين أقل تعاسة الآن . إن لدى من الخبرة الكافية مايجعلنى أهلا لأن أعلم ما أقول . وكل ما هو مطلوب منك أن تصدقى ذلك لتهدئى حالا .

إن ذكرى والدك العزيز بدلا من أن تكون مصدر شقاء ستكون شعوراً حزيناً حلواً فى قلبك أنقى وأقدس مما عرفته من قبل . »

وكتب إلى ليديا بكسبى ، وهى أرملة من بوسطن قيل إنها فقدت خمسة أبناء فى الحرب ، هذه السطور التى لاتنسى :

« إنى أشعر أن كل كلمة أقولها لأحاول أن أسرى عنك الحزن على مثل هذه الفجيعة الفادحة لابد أن تكون ضعيفة عقيمة . ولكنى لا أستطيع إلا أن أقدم إليك ما عسى أن يوجد من سلوى فى شكر الجمهورية التى ماتوا من أجل إنقاذها .

« وإنى لأضرع لله الذى فى السماء أن يخفف عنك لوعة الفراق ، ولا يبقى لك إلا الذكرى العزيزة للأحياء الذين فقدوا ، والفخر الرزين الذى أنت أهل له بما قدمته من تضحية غالية على مذبح الحرية . »

وكان رجلا متديناً ، وإن لم ينتم إلى كنيسة منظمة . فقد كان يحب الكتاب المقدس ويعرفه معرفة وثيقة . وقال مرة لنوح بروكس . « لقد ألجئت مراراً لأن أركع على ركبتى بإيمان قاهر أن ليس ثمة مكان آخر ألتجىء إليه : إن حكمتى وحكمة كل من حولى بدت كلها غير كافية لذلك اليوم . »

وفى أحد الأيام الأخيرة من عام ١٨٦٤ توسلت إليه سيدتان من تنيسى أن يطلق سراح زوجيهما اللذين أسرا فى الحرب . واستمرت إحدى السيدتين تكرر أن زوجها رجل متدين . وقد أمر الرئيس بإطلاق سراح الأسيرين وقال للسيدة : « تقولين إن زوجك رجل متدين . قولى له عندما تقابلينه إنى لست الحكم الكفء فى الدين ، ولكنى أعتقد أن الدين الذى يدفع الرجال لأن يتمردوا ويحاربوا حكومتهم لأنهم يعتقدون أن تلك

الحكومة لا تساعد بعض الناس مساعدة كافية لأكل خبزهم بعرق رجال آخرين، ليس هو الدين الذى يستطيع الناس باتبـاعه أن يدخلوا الجـنة . »

وكان يحب أن يضحك . وقد كتب الرسام كاربنتر يقول : « كانت ضحكة المستر لنكولن فريدة فى نوعها . إن صهيل حصان برى فى مرعاه الذى ولد فيه ليس أكثر سفورا ولا انطلاقا ، لقد كان الضحك بالنسبة للنكولن بمثابة الشىء الذى يحفظ الحياة . وكان الضحك على حد ما وصفه ذات مرة « هو البهجة والجمال والخضرة الدائمة فى الحياة ، ولولا الضحك لما استطاع أن يعيش .

وكانت فكاهاته — ولديه منها عشرات حاضرة — تستخدم لبيان نقطة أو توضيح فكرة أو إقامة حجة . وغالباً ماكانت تبـدأ بقوله : « هذا يذكرنى . »

فعندما سئل هل يضايقه نقد هوراس جريلى القاسى ، أجاب قائلا : « إن هذا يذكرنى بذلك الرجل الضخم الذى كانت زوجته الصغيرة تضربه على رأسه دون مقاومة منه ، وحينما لامه أصدقاؤه على ذلك استدار إليهم وقال : « دعوها وشأنها ، إن هذا لا يؤذينى ولكنه يريحها كثيراً » .

وفى أثناء انتخاب عام ١٨٦٤ سئل أن يتدخل علانية فى المعركة القائمة بين شقى الحزب الجمهورى ، ولكنه رأى من الأحكم الابتـعاد عنها وقال : « لقد تعلمت منذ سنين طويلة أن من يدخل فى نزاع بين زوج وزوجته يكون كمن يضع نفسه بين شقى الرحى . »

وعندما لاحظ جون هاى أن الجنرال بتلر كان فى اعتقاده هو الرجل الوحيد فى الجيش الذى يخشى من وضع السلطة بين يديه أجاب لنـكولن بقـوله :

« نعم هو مثل شقيق جيم جيت . فقد دأب جيم على أن يقول: إن أخاه

كان ألعن وغد على ظهر الأرض ، ولـكن رحمة الله التى ليس لها حدود شاءت أيضا أن يكون ألعن غبي . »

وعندما قدم إلى لـنكولن جماعة من أعضاء الشيوخ يحثونه على إعادة تنظيم الوزارة ،تذكر الرئيس مزارعاً عجوزاً فى إلينوى ضايقته الظرابين[1] فخرج ذلك المزارع ذات ليلة ومعه بندقية صيده ، واختفى فى كومة من الخشب ، وانتظر . وقبل مضى وقت طويل ظهر سبعة ظرابين لا واحد ، فصوب بندقيته وقتل واحداً . ولـكنه أخرج رائحة كريهة حتى إن المزارع رأى من الخير ترك الستة الأخرى .

ولم يحدث بعد ذلك أى كلام فى ذلك اليوم عن إعادة تنظيم الوزارة لقد فهم الشيوخ ملاحظته ، وعرفوا مقصده ، ولم يكن لنكولن يروى قط نكتة لمجرد النـكتة . وكما قال سيوارد وزير الخارجـــية : «كانت أشبه بالأمثال ، دروساً فى الحـكمة »

وقد ذكره هجوم بالـغ العنف من صحيفة « نيويورك تريبيون» بقصة مسافر فى الغابات تاه وسط عاصفة ثلجية . وكان البرق يومض ، والرعد يقصف ، وأطلقت السماء غضبها من عقاله وبدت قعقعة مخيفة ركع المسافر على ركبتيه ضارعاً : « يا إلهى ! إن لم يكن عندك مانع فزدنا قليلا من النور وانقص قليلا من الضوضاء ! »

وذكرته هجمات الجمهوريين المتطرفين بصديق قديم أعطى ابنه مجـهراً ومنذ تلك اللحظة والصبي ينظر إلى كل شيء من خلال العدسة . وذات يوم تناول والده قطعة من الجبن على الغذاء فصاح الصبي : « لا تأكلها ياوالدى ! إنها مليئة بالديدان التى تتـلوى ! » فأجابه الشيخ وهو يقضم الجبن : « دعها تتلوى ، فإنى أستطيـع احتمال تلويها إن كانت هى تستطيع أن تتحمـله »

---

(١) جمع ظربان ، وهو حيوان صغير خبيث الرائحة .

وكان يستطيع أن يضحك من نفسه بسهولة كما يضحك من غيره. فحينما سأله أحد الناس عن شعوره عندما أصبح رئيساً لدولة عظيمة كالولايات المتحدة، تذكر ما قاله الرجل الذى دهنه جيرانه بالقار وغطوه بالريش وأركبوه عربةسكة حديد إلى خارج المدينة[1] ولما سئل: هل يسره ذلك؟ قال: « لولا أنه شرف لكنت أفضل السير على قدمى. »

وقدقال لنكولن: « يقولون إنى أروى قصصاً كثيرة. أنا أعلم ذلك. ولكنى تعلمت من خبرتى الطويلة أن عامة الناس يميلون بطبعهم إلى التأثر بوساطة التمثيل الفكاهى العريض أكثر من تأثرهم بأى طريقة أخرى. أما ما تظنه الأقلية المسرفة فى النقد فإنه لا يهمنى. »

---

(١) عادة قديمة عند الأمريكيين، يفعلون ذلك بالرجل إذا أرادوا فضحه والتشهير به. والمعروف أن هذه العادة انقطعت منذ سنة ١٨٩٤. (المراجع)

١٣ ـــ زواجـــه :

لقد كُتب الكثير عن حياته الزوجية غير السعيدة . ولكن زواجه لم يكن أسوأ من غيره ، فلم تكن مارى سيئة العشرة ، بل كانت زوجة صالحة وأماً صالحة ، وكانت تحب زوجها وأولادها .

لقد كانا يتشاجران . وأى زوجين لم يتشاجرا ؟ إن مارى كانت مرهفة الأعصاب دائماً ، حساسة تؤذيها الكلمة غير المنتقاة ، ولم تكن ميالة إلى الدعابة ، ولكنها كانت دائماً مخلصة وفية لزوجها .

على أن قيم الأشياء فى نظرها لم تكن تشبه قيم الأشياء فى نظر زوجها . فعندما جاءت إلى واشنطن لأول مرة ، ظنت أنها تستطيع أن تجذب المجتمع إلى فلكها إذا تأنقت فى ثيابها وأقامت حفلات نخمة . وأنفقت مارى مبالغ طائلة من المال على الملابس بدون علم لنكولن واستدانت ديناً ضخماً انقلب كابوساً دائماً لسنين طويلة .

وحتى لو كانت غير ما كانت لما استطاعت كسب سيدات واشنطن إلى صفها ، فقد كانت السيدات اللائى يعطفن على الجنوب يحتقرنها لأنها انقلبت على الجنوب ، بينما أشاعت المواليات لقضية الشمال أنها كانت جاسوسة للجنوب .

وكانت مارى تغار على لنكولن ، وكان هو يطرب لذلك بينه وبين نفسه ، وذات مرة ، وكانت ترتدى ملابسها استعداداً لإحدى الحفلات ، سمعت خياطتُها حوارهما وروته كما يلى :

سألها لنكولن وفى عينيه بريق المرح :

ـــ حسناً ياأماه ، من التى يجب أن أتحدث معها الليلة . هل تكون مسز د ؟

والتقطت مارى الطعم فأجابت قائلة :

— تلك المرأة المخادعة ، كلا . لن تستمع إلى تملقها

— حسناً . وماذا تقولين عن مسز ك ؟ إنها أصغر وأجمل من أن تمارس الخداع .

— تقول إنها صغيرة وجميلة ؛ يجب ألا تجعل من نفسك حكما على الجمال بدلا منى . كلا إنها من زمرة مسز د ، ولن تتحدث معها .

— حسناً يا أماه . . إننى يجب أن أتحدث مع إنسان ما . هل هناك من لا تعترضين عليه ؟ قال ذلك وهو يتصنع الوقار :

— أنا لا أعرف أن الضرورة تحتم أن تتحدث إلى واحدة بالذات . إنك تعلم جيداً يا مستر لنكولن أننى لا أوافق على مغازلتك للنساء السخيفات كما لو كنت شاباً أمرد لم يكد يترك المدرسة .

— ولكننى مصمم يا أماه أن أتحدث مع شخص ما . أنا لا أستطيع أن أقف كالأبله لا أقول شيئاً : وإن لم تذكرى لى من يحسن أن أتكلم معها ، فأرجو أن تخبرينى من اللاتى لا يجوز أن أتحدث معهن .

— هناك مسز د . ومسز ك . على الخصوص . إننى أمقتهما كليهما . ومسز ب ستحوم حولك أيضاً ، ولكنك لست فى حاجة أن تستمع لملقها . هؤلاء هن السيدات اللاتى أخصهن بالذات .

— حسناً جداً يا أماه . والآن وقد سوينا المشكلة بما يرضيك ، هيا بنا ننزل .

لم تكن مارى لتستطيع أن تتحكم فى نفسها إذا تخيلت أن امرأة ما استحوذت على انتباه زوجها ، فكان غضبها يشتعل ، كما حدث ذات مرة عند زيارته لإحدى فرق الجيش ، إذ علمت أن زوجة الجنرال أورد كانت تركب جوادها إلى جوار الرئيس . فسألت فى غضب : « ما الذى تعنيه هذه المرأة من الركوب إلى جوار الرئيس متقدمة على ؟ هل هى تعتقد أنه يريدها إلى جواره ؟ » ، وحينما أدركت مسز أورد الجميلة أثارت معركة ظل الناس يتذكرونها مدة طويلة .

لقد ظل معظم أفراد أسرة مارى فى صفوف الجنوب . وقتل ثلاثة من إخوتها غير الأشقاء وهم يحاربون فى صفوف الثوار ، وقتل زوج أختها الأثير عندها فى إحدى المعارك . ولكنها لم تتردد فى مشاعرها ، وإن شقت عليها هذه المصائب ! لقد وقفت مع زوجها ومع الشمال ، وقالت مرة لخياطتها الملونة : « لماذا أعطف على الثوار؟ أليسوا ضدى ؟ إنهم لو استطاعوا لشنقوا زوجى غداً وقد يشنقوننى معه . كيف إذن أستطيع العطف على أناس يحاربوننى ويحاربون من معنى ؟»

ولكن الشائعات جعلت منها امرأة لا ولاء لها . وعند ما بلغ التهامس حداً جعل لجنة تحقيق من الكونجرس تستعد للنظر فى ولائها ، ذهب لنكولن إلى دار الكاپيتول وأدلى بالشهادة التالية : « أنا أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة ، أقف بمحض اختيارى أمام هذه اللجنة من لجان مجلس الشيوخ ، لأقول : إنى أعرف من معلوماتى الشخصية ، أنه ليس صدقا أن أى فرد من أسرتى يتصل بالعدو بقصد الخيانة . »

وكانت مارى كـكثير من النساء القويات الذكيات ، لا تستطيع الامتناع عن التدخل فى أمور زوجها وقد كانت لها آراء قوية ومحددة .

قالت فى إحدى المناسبات :

« يا أبتاه ! إنك على درجة من الأمانة لا تصلح لهذه الدنيا ، وكان يجب أن تولد قديسا . وستجد أن القاعدة السليمة بصفة عامة : هى ألا تأتمن سياسياً طموحاً خاب ظنه . إنه مما يذهب بعقلى أن أراك ساكناً لا تتحرك وتترك سيوارد ذلك المنافق يلعب بك بين أصابعه كما لو كنت كرة خيط »

وكان رأيها فى تشيس مثل ذلك سوءاً ، وقالت عنه للنكولن :

« لو ظن أنه يستطيع أن يكسب شيئاً من خيانتك ، لخانك من غده » أما الجنرال ماكللان فكان بالنسبة لها (غشاشاً) ، كثير الكلام قليل العمل » وأما الجنرال جرانت فكان « غبياً عنيداً وجزاراً . »

وكان لنكولن يرد فى سخرية قائلا : « حسنا يا أماه ، لو فرضنا أننا أعطيناك قيادة الجيش ... لا شك أنك ستنجحين أكثر من أى قائد آخر ممن جربناهم . »

ولكنهما كانا يحب كلاهما الآخر حباً رقيقاً مليئاً بالعطف ، فهو يشتاق إليها إذا كانت بعيدة عن واشنطون ، وقد أبرق إليها ذات مرة قائلا : « إن الهواء صاف ومنعش ، ويبدو صحياً ، حتى إننى سأسر من أجلك إذا حضرت . » وبعد ذلك بيوم واحد أرسل يستعجلها قائلا : « إنى حقيقة راغب فى رؤيتك . » وخلال حياتهما الزوجية التى استمرت اثنتين وعشرين سنة لم يهمس إنسان بأن لنكولن التمس صحبة نساء أخريات . إن شعوره نحوها يمكن أن يلخص أحسن تلخيص بما قاله هو نفسه : فى حفل استقبال بالبيت الأبيض ؛ كان مراسل جريدة كريستيان رجستر واقفاً بجانب الرئيس بينما كانت مارى تتحدث مع بعض الضيوف ، فنظر إليها لنكولن نظرة إعجاب وقال : « إن زوجتى ما تزال جميلة كما كانت وهى فتاة وأنا إذ ذاك نكرة مسكين ، فوقعت فى حبها ، وأكثر من ذلك أنى لم أخرج منه قط . »

١٤ — المعارك النهائية :

كان عهد الثوار يجرى سريعاً نحو نهايته . فى منتصف ديسمبر عام ١٨٦٤ رد هجوم الجنوب على تنيسى . فقد هزم الجنرال توماس خصمه فى ناشفيل هزيمة تامة ، حتى إن جيش الثوار فى الغرب لم تقم له بعد ذلك قائمـــة .

وفى ١٠ ديسمبر زحف الجنرال شيرمان من أتلانتا ، وفى أثناء تقدم جيشه وسط جورجيا ، وهو يعيش على غلة الأرض ويخرب فى طريقه مساحة عرضها ستون ميلا ، جعل الجيش من هذه الولاية « مثلا للثوار » لقد دفع شيرمان فظاعة المعركة إلى الجنوب ، لقد ولى زمان الحرب المهذبة، وأصبحت الحرب جحيما . وقبل انقضاء أسبوعين وصلت قواته إلى البحر، وشطر جورجيا شطرين . وفى الثانى والعشرين من ديسمبر أبرق شيرمان إلى لنكولن يقول : « أرجو أن أقدم إليك مدينة سافانا هدية عيد الميلاد ومعها ١٥٠ مدفعاً ثقيلا وكثير من الذخيرة وكذلك ٢٥٠٠٠ بالة من القطن تقريباً . »

زاد الأمل وزادت الفرحة فى الشمال ، وحين شكر لنكولن شيرمان على هذا النصر اعترف أنه عندما غادر الجنرال أتلانتا إلى ساحل الأطلنطى «كنت قلقاً إن لم أكن خائفاً ، ولكنى لم أتدخل لأنى كنت أحس أنك أقدر منى على الحكم ، ولأنى تذكرت أنه لاربح بدون مخاطرة . والآن وقد كللت العملية بالنصر ، فإن فخرها كله لك ، لأنى أعتقد أنه لم يذهب أحد منا إلى مدى أبعد من مجرد الموافقة . وإذا أخذنا عمل الجنرال توماس فى الحسبان ، وهو يجب أن يؤخذ فى الحسبان فقد كان ذلك فى الواقع نجاحاً كبيراً .

وقد تلت الانتصارات الحربيـة ، انتصارات سياسية ، إذ تضمنت إعادة انتخاب لنكولن تفويضاً بإعادة إدخال التعديل الثالث عشر الذى يقضى بمنع الرق والسخرة داخل حدود الولايات المتحدة . وقد سبق أن

رفض هذا التعديل من قبل فى مجلس النواب ، وطلب الرئيس فى خطابه السنوى للكونجرس إعادة النظر فيه .

كانت الولايات المتحدة فى طريقها لأن تصبح أمة حرة ، وكان الرق فى سبيله إلى الانتهاء ، وحتى قبل الموافقة على التعديل الثالث عشر فى نهاية يناير ١٨٦٥ ، كانت ولايات أركنساس ولويزيانا وماريلاند وميسورى قد ألغته ، وكانت كل من تنسى وكنتـــكى راغبة فى أن تحذو حـــذو تلك الولايات .

وفى أوائل يناير عام ١٨٦٥ سافر فرانسيس برستون بلـــير صديق أندرو جاكسون وأحد أعضاء وزارته إلى ريتشموند ليتعرف على رأى جفرسون دافيز فى إنهاء الحرب ، كان دافيز على استعداد للمفاوضة مع الشمال حتى يمكن أن يعود السلام إلى الـــبلدين ، ولكن عندما أفضى بلير بهذه الرسالة ، صحح لنكولن قول دافيز إلى أن الشمال مستعد للمفاوضة مع الجنوب حتى يمكن أن يعود السلام إلى شعب بلدنا الواحد المشترك .

وبناء على هذا تقابل الرئيس فى اليوم الثالث من فبراير وفى صحبته وزير خارجيتـه وليام سيوارد مع المفاوضين الثلاثة الذين عينهم الاتحاد الاستقلالى الجنـــوبى ، وهم الكسندر هـ . ستيفنز نائب رئيس الاتحاد الاستقلالى ، و ر . م . ت . هنتر والقاضى جون ا . كامبل على ظهر الناقلة « ريفركوين» فى هامبتون رودز . وقد تباحث الرجال الخمسة ساعات طويلة ، وذكر لنكولن للمفاوضين أنه لم يزل يؤمن بالتحرير مقابل التعويض وإذا توقفت المعارك فإنه سيقدم اقتراحاً بتخصيص مبلغ أربعمائة مليون دولار لتعويض ملاك العبـــيد ، ولكنه لن يتحدث فى ذلك حتى تضع الولايات المتحدة الثائرة سلاحها . وقد رد أحد مندوبى الاتحاد الاستقلالى قائلا : إن الملك شارل الأول نفسه تفاوض مع الرجال الذين حملوا السلاح ضد حكومته . ورد لنكولن على ذلك ببسمة ذات معنى . قائلا : إنه

مع عدم تمكنه من التاريخ فهو يذكر جيـــداً أن شارل قد فقد رأسه -
وتكلم هنتر قائلا : « سيدى الرئيس » إذا كان مافهمناه صحيحاً، فأنت ترى أننا ، رجال الاتحاد الاستقلالى ، قد ارتكبنا جريمة الخيانة ، وأننا خائنون لحكومتنا ، وأننا تجاوزنا حقوقنا ، ونستحق أن نسلم ليد الجلاد « أليس ذلك هو ما تتضمنه كلماتك ؟ »

ورد لنكولن قائلا : « نعم لقد عبرت عن الغرض أبلغ منى ، هذا هو مضمونه تقريباً »

وبعد فترة صمت مثقلة قال هنتر فى دعابة : « حسناً يامستر لنكولن ، لقد فهمنا تقريبـــا أننا لن نشنق مادمت أنت الرئيس . هذا إن أحسنا السلوك . »

وانتهت المحادثات بروح من الود ، ولكن دون نتائج سياسية . وأرسل سيوارد زنجيابسلة من زجاجات الشامپانيا إلى المندوبين فى أحد القوارب عندما شرعوا فى الرحيل ، وتردد صوت وزير الخارجية فى بوق الملازم البحرى فوق المياه : قال سيوارد وهو ينفخ فى البوق : « خذوا الشمپانيا » ثم أضاف ضاحكا : « ولكن أعيدوا الزنجى ! »

استمرت الحرب . واستمر التخريب ، وكان على الرجال أن يقاسوا ، وكان عليهم أن يموتوا ، وبدت الحرب لامعنى لها مادامت أصبحت جد واضحـــة .

نصب لنكولن رئيساً للمرة الثانية بعدمحادثاته فى هامپتون رودز بشهر، وقد كان الرابع من مارس يوماً مظلماً ، تساقط فيه رذاذ المطر باستمرار ، وغطيت الشوارع بالأوحال . وهبت ريح عاصفة . وعندما ظهر لنكولن على منصة التنصيب قوبل بعاصفة قوية من التهليل والتصفيق ثم ألقى خطابه عندما انتهت تلك العاصفة .

وبعد ذلك ، فى شهر مارس أيضاً ، طلب الجنرال جرانت من الرئيس

أن يزور مقر قيادته ، لأنه يريد أن يتحدث إليه ، هذا إلى جانب أن الراحة ستفيده ، وصعد لنكولن على سطح المركب « ريفركوين » ، وأبحر ومعه ماري وتاد إلى سيتي بوينت .

ووصل الجنرال شيرمان من كارولينا الشمالية . وفى مساء السابع والعشرين تقابل الرئيس مع جرانت وشيرمان والأميرال بورتر فى حجرته بالسفينة الناقشة . واستمر مؤتمرهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وواصلوه فى اليوم التالى . لقد تحدثوا عن شروط التسليم ومستقبل الجنوب . وكان لنكولن يرغب ـ حالما يلقى الثوار سلاحهم ـ أن يضمن لأهل الجنوب جميع حقوقهم كمواطنين فى بلد مشترك ، وتحدث عن أمله فى تجنب معركة دموية نهائية « فلقد أريق من الدم ما فيه الكفاية . »

غادر جرانت سيتي بوينت ليقود الهجوم النهائى ضد الثوار . وأرسل إلى الرئيس من الميدان بعض أعلام المعركة ، وقد فرح بها لنكولن وقال : « إن هذا شيء ملموس . شيء أستطيع أن أراه وأحسه وأفهمه . إن هذا يعنى النصر . إن هذا هو النصر . »

لقد كانت النهاية على مرمى البصر . ففى الثالث من أبريل استولت قوات الاتحاد على ريتشموند . لقد استسلمت عاصمة الثوار ورمز قوتهم .

وفى اليوم التالى سافر لنكولن وكله سعادة إلى تلك المدينة ، وبينما هو يسير بعربته فى شوارعها تجمع الزنوج حوله وركعوا أمامه ، فقال لهم : « يجب أن تركعوا لله وحده وتشكروه على حريتكم . » وهنا صاح رجل ملون : « الحمد لله ، هذا هو المسيح المنتظر ! » وابتسم الرئيس ، وكان يبدو لأحد المراقبين « شاحباً مجهداً منهوكاً » . وعند ماسأله الجنرال ويتزل فى ذلك المساء ، كيف يعامل الشعب المهزوم ؟ أجاب الرئيس : لو كنت مكانك لتركتهم ينهضون على مهل . « لتركتهم ينهضون على مهل . »

وفى الخامس من أبريل سلم جرانت رسالة شريدان إلى الرئيس ، وفيها يبلغه نبأ القبض على سبعة آلاف أسير، وكمية كبيرة من العتاد الحربى . وجاء فى رسالته : « إذا والينا الهجوم فإنى أعتقد أن لى سيسلم . » وأبرق إليه لنكولن مجيباً : « وال الهجوم . »

كانت خطوط إمدادات لى قد قطعت ، وقواته تقاتل قوات تفوقها بنسبة خمسة رجال إلى واحد ، وكان رجاله حفاة وفى حاجة إلى الذخيرة ، وفى الثامن من أبريل كان الرئيس فى طريقه إلى واشنطون . وفى ذلك اليوم تبادل جرانت المذكرات مع لى . وفى الصباح التالى زار لنكولن الوزير سيوارد الذى كان قدأصيب إصابة بليغة فى حادث عربة وقد همس سيوارد ووجهه وعنقه ملفوفان بالضمائد : «هل عدت من ريتشموند ؟ » وكان الجواب : « نعم ، وأظن أننا قاربنا النهاية أخيراً . »

وحوالى الوقت الذى قام فيه لنكولن بزيارة سيوارد ، كان الجنرال لى يسلم لجرانت فى دار محكمة أبوماتكس .

وفى الليلة التالية حضر جمهور كبير إلى مقر الهيئة التنفيذية بواشنطون وهم يهللون وطلبوا الرئيس . وتحدث إليهم لنكولن فى روية ورزانة متأملا مستقبل الولايات الثائرة :

« نحن جميعاً متفقون على أن الولايات التى كانت تسمى بالولايات المنشقة قد انقطعت صلتها العملية بالاتحاد ، وأن الهدف الأوحد للحكومة بسلطاتها المدنية والعسكرية فيما يختص بتلك الولايات هوأن تعيدها ثانية إلى تلك الصلة العملية الصحيحة . وأعتقد أننا إذا لم نفكر أن هذه الولايات قد خرجت من الاتحاد يوماً ما فإن إعادتها إلى تلك الصلة العملية لن تكون ممكنة فحسب ، بل ستكون أسهل مما لو فكرنا فى ذلك ، فحينما يجدون أنفسهم آمنين فى أوطانهم سيكون مما لا محل له على الإطلاق أن يفكروا أنهم قد اغتربوا عنه يوماً ، فلنتكاتف جميعاً فى أداء الأعمال اللازمة

لاسترجاع الصلات العملية الصحيحة بين هذه الولايات وبين الاتحاد»، وعلى كل منا بعد ذلك ، وإلى الأبد ، أن يفكر بنزاهة ، فيما بينه وبين نفسه ، فيما إذا كان بأدائه لهذه الأعمال قد جلب الولايات من الخارج إلى الاتحاد ، أو قدم إليها فحسب المساعدة الواجبة لأنها لم تخرج منه قط . »

وكان تاد واقفاً إلى جوار والده وهو يخطب ، وقد استمع إلى خطبة السناتور هارلان الذى تساءل فى انفعال : « ماذا نصنع بالثوار ؟ » .

ولما صاح الجمهور « علقوهم ! » استدار تاد إلى والده وقال : — هكذا تذهب الرواية — كلا ، كلا ياوالدى ! لا تعلقوهم بل تعلقوا بهم ! وهنا صاح لنكولن : « هذا هو الجواب ! لقد عرفه تاد ، يجب أن نتعلق بهم . »

١٥ — حلم مشؤوم:

فى إحدى ليالى أبريل رأى لنكولن فى منامه حلماً غريباً ، وقد تحدث عنه إلى مارى ، قال لها : « منذ عشرة أيام تقريباً ، ذهبت إلى فراشى متأخراً ، فقد كنت فى انتظار أنباء هامة من الجبهة ، ولم ألبث فى سريرى طويلا حتى غشينى النعاس لأنى كنت متعباً . وسرعان ما بدأت أحلم . كان يبدو حوالىّ سكون أشبه بسكون الموت ، ثم سمعت أنات مكتومة كما لو كان هناك أناس يبكون ، فخيل إلى أنى أغادر فراشى وأنزل الى الطابق السفلى ، وهنا شق السكون تلك الأنات الحزينة ذاتها » ولكن النائحين كانوا غير منظورين . ذهبت من حجرة إلى حجرة ، ولكننى لم أر إنساناً حياً ، ومع هذا كانت تقابلنى نفس أصوات الألم الحزينة أثناء مسيرى . لقد رأيت نوراً فى جميع الحجرات وكان كل ما فيها مألوفاً لدىّ ، ولكن أين كان كل هؤلاء الناس الذين كانوا يتوجعون كما لو كانت قلوبهم توشك أن تنشق ؟ لقد تحيرت وانزعجت . ماذا يمكن أن يكون معنى كل هذا ؟ ونظراً لأنى صممت على أن أكتشف سبب هذه الحالة الغامضة المفزعة ، واصلت سيرى حتى وصلت إلى الحجرة الشرقية ، فدخلتها ، وهناك قابلتنى مفاجأة مروعة . فقد رأيت أمامى نعشاً عليه جثمان ملفوف فى كفن ، وحوله وقف جنود يقومون على حراسته ، وكان هناك حشد من الناس يحدقون فى أسى فى الجثمان وقد غطى وجهه . بينما كان آخرون يبكون بكاء يثير الشفقة ، فسألت أحد الجنود : من الذى مات فى البيت الأبيض ؟ وكان الجواب :

« الرئيس . لقد قتله سفاح » ثم انبعث من الجمع نواح مرتفع أيقظنى من أحلامى . ولم أنم بعد ذلك فى ليلتى . ومع أن الأمر كان كله حلماً فإنى لم أزل أشعر بضيق غريب منذ ذلك الحين . »

أزعج الحلم ماري وقالت له : « ليتك لم تخبرني به . الحمد لله على ألا أصدق بالأحلام ، وإلا كنت أقع فريسة للخوف من هذه اللحظة إلى ما شاء الله . »

« لقد كان حلماً فقط ياماري ، ولنتفق على ألا نذكر عنه شيئا آخر ، ولنحاول أن ننساه . » ولكن كيف يمكنها أن تنساه ؟ لقد سمعت من قبل عن وصول خطابات مع كل بريد ، خطابات تحذير وخطابات تهديد ، وكانت تتوجس شراً ، ولكنه عندما كان يتلقى تحذيراً وعندما كان أعز أصدقائه يتوسلون إليه ألا يغادر منزله دون حراسة وألا يسير أبداً بمفرده في الشوارع ، لم يكن يزيد على الضحك قائلا :

« لماذا يرغب إنسان ما في قتلي ؟ إذا رغب إنسان أن يفعل ذلك فهو يستطيعه في أي يوم وفي أي ليلة إذا كان على استعداد لأن يدفع حياته ثمناً لحياتي . إن الأمر كله هراء . »

وقد تحدث مع وارد هيل لامون عن حلمه قائلا : « إن مخاوفك ياهيل من أن يلحق الأذى بي عدو مستتر حماقة من أولها إلى آخرها . لقد دأبت مدة طويلة على محاولة منع شخص ما ـ الله يعلم من يكون ـ أن يقتلني . ألا ترى كيف ستكون النتيجة ؟ في هذا الحلم لم أكن أنا الذي قتلت ، بل شخص آخر ، ويبدو أن السفاح المرعب قد جرب مهارته في شخص آخر . وهذا يذكرني بفلاح من إلينوي مرضت أسرته من أكل الخضر ، فقد اختلطت بها عشبة سامة وتعرض أفراد الأسرة لخطر الموت ، وكان بين أفراد الأسرة صبي أبله يدعى جيك ، فكان رب الأسرة دائماً بعد ذلك يقول حين يكون عندهم شيء من الخضر : « والآن قبل أن نخاطر بأكل هذه الخضر يجب أن نجربها في جيك ، فإذا احتملها فلن نخشى شيئاً . » إن الأمر كذلك بالنسبة لي ، فطالما أن ذلك السفاح الخيالي مستمر في أداء عمله مع الآخرين فأنا أستطيع أن أحتمل . »

١٦ — يومه الأخير :

فى الرابع من شهر أبريل رفع الجنرال أندرسون علم الاتحاد مرة أخرى فوق قلعة سمتر . وفى ذلك اليوم أعلن وزير الحربية أن أوامر التجنيد ستوقف ، وفى نفس اليوم كتب لنكولن إلى الجنرال فان ألن معبرا عن أمله فى أن الاتحاد الذى سيعود سوف يصبح « اتحاد قلوب وأيد مثلما هو اتحاد ولايات . »

وقال الرئيس لجون ا . ج . كرسويل الذى جاء لزيارته : « كرسويل ياصديقى العجوز ، كل شىء مشرق هذا الصباح ، لقد انتهت الحرب ، ستطيب أيامنا الآن ويكون لنا بلد متحد . »

وقد عقد اجتماع لمجلس الوزراء فى ذلك الصباح دعى الجنرال جرانت إلى حضوره ، ونوقش فى ذلك الاجتماع استرجاع الاتحاد وإعادة تأسيسه . من الذى ستصير له سلطة الدولة ؟ لقد قال لنكولن : « إننا لانستطيع أن نأخذ على عاتقنا إدارة حكومات الولايات فى جميع هذه الولايات الجنوبية ، ولكن أهالى تلك الولايات هم الذين يجب أن يقوموا بذلك ، وإن كنت أعتقد أن بعضهم سيسىء العمل فى بادىء الأمر . » وماذا يكون مصير زعماء الثوار ؟ لقد قدّر أنهم قد يهربون ، وقد يسلمون أنفسهم للأسر والمحاكمة وسأل دنيسون المدير العام للبريد : « أعتقد يا سيادة الرئيس ، أنك لن تأسف إذا هربوا من البلاد . » وكان الجواب : « حسنا ، لن آسف لتمكينهم من الخروج من البلاد ، ولكنى أفضل متابعتهم عن قرب حتى أتأكد من خروجهم . »

وأبلغ الجنرال جرانت المجلس نبأ استسلام لى ، والشروط التى أعطاها لجنود الثوار ، قائلا : لقد قلت لهم أن يعودوا إلى ديارهم وذويهم ، وإنهم

لن يصيبهم أذى إذا هم لم يفعلوا أكثر من ذلك . » فأومأ لنكولن موافقا . ثم تحدث الرئيس بعد ذلك عن أعضاء بالكونجرس « تنطوى صدورهم على مشاعر الكراهية والانتقام التى لا أعطف عليها ولا أستطيع مشاركتهم فيها . . »

ولما انتهى اجتماع مجلس الوزراء ، قابل لنكولن بعض زوار آخرين . فقد استقبل نانسى بوشرود ، وهى امرأة ملونة جاءت تلتمس صرف مرتب زوجها الجندى . وقال لها الرئيس: «يا عزيزتى ، قد ترين أياماً كثيرة يكون فيها كل ما فى البيت من طعام رغيفاً واحداً من الخبز ، وحتى فى تلك الحالة أرجو أن تعطى كل طفل من أطفالك كسرة منه ثم ترسليهم إلى المدرسة . » وبعد ذلك انحنى لنانسى محيياً ، ولم تنس تلك الحادثة قط ، فقد قالت : «كما لو كنت سيدة حقة ! »

ثم أمضى قرار عفو عن جندى هارب ، وعلق عليه بقوله : « أعتقد أن ذلك الصبى يستطيع أن يؤدى لنا من الخدمات فوق الأرض أكثر مما يستطيع تحتها . »

وركب مع مارى للنزهة بعد الظهر ، وكعادته كانت تبدو عليه السعادة، فأخذ يحلم بالمستقبل ، وقال لها : « لقد كانت أيامنا صعبة ، منذ جئنا إلى واشنطون ، ولكن الحرب انتهت ، ولنا أن نأمل ، ببركة الله ، فى أربعة أعوام من السعادة والسلام ، ثم نعود بعد ذلك إلى إلينوى ونقضى بقية العمر فى هدوء . لقد ادخرنا بعض المال ، وفى أثناء هذه الفترة سندخر مبلغاً آخر ، ولكنه لن يكون كافياً لأن يعولنا ، وعلى هذا سنذهب إلى إلينوى وسأفتح مكتبا قانونيا فى سبرنجفيلد أو شيكاغو وأمارس مهنة المحاماة ، وسأعمل على الأقل بالقدر الذى يساعدنا على العيش . »

وعند عودته من النزهة لم يجد فى نفسه نشاطاً للعمل ، فقرأ لاوجلسبى حاكم إلينوى والجنرال هايثى اللذين جاءا لزيارته، بضعة فصول من «رسائل»

بترولبام ف . » ناسبي بمتعة واستغراق حتى تأخر موعد العشاء .

وبعد تناول العشاء سار إلى وزارة الحربية ليرى إن كانت هناك أنباء من جيش شيرمان . ثم حان الوقت للذهاب إلى المسرح . وكان قد اتفق فى الصباح على أن يزور الرئيس ومسز لنكولن مسرح فورد لمشاهدة مسرحية « ابن عمنا الأمريكى » وأن يذهب معهما الجنرال جرانت وزوجته . وكانت العاصمة غاصة بالجنود والضباط الذين كانوا يتطلعون لرؤية الرئيس وقائد الجيش . على أن جرانت اعتذر لشدة رغبته فى مغادرة واشنطن ، فوجهت مسز لنكولن الدعوة إلى مس كلارا هاريس ابنة السناتور إيرهاريس وربيبة الرائد هنرى ريد راثبون .

وصل الرئيس ومن معه إلى المسرح بعد بدء « العرض » وما إن دخل حتى توقف الممثلون عن التمثيل وعزفت الموسيقى « مرحبا بالرئيس » وانحنى لنكولن للجمهور ثم جلس على المقعد الهزاز فى مؤخرة المقصورة .

وبينما كان يشاهد المسرحية مضى شاب ينفذ الخطة الجنونية لقتله .

كان جون ولكس بوذ فى السادسة والعشرين من عمره ، ينحدر من أسرة اشتهر أفرادها بالتمثيل ويحب الجنوب حباً خيالياً . وكان مضطرب العقل ، واقعاً تحت تأثير الخمر ، وقد أعد عدته بعناية كبيرة ، فكان فى المسرح قبل بدء المسرحية ببضع ساعات يحفر ثقباً صغيراً فى باب مقصورة الرياسة . والآن عاد مرة أخرى . وكان الحراس يتجولون بعيداً فلم يعترض سبيله أحد ، لقد أخذ ينظر خلال الثقب لحظات قليلة ، وكان لنكولن قبل ذلك ببرهة قصيرة قد أمسك بيد مارى التى همست قائلة : « ماذا تقول مس هاريس عنا ! » وضحك الرئيس وهو يقول : « لن تقول شيئاً » . واستمر ممسكا بيد مارى فى يده وهو جالس يستمتع بالكوميديا .

وتسلل جون ولكس داخل المقصورة بهدوء ، وكان فى يده اليمنى مسدس صغير ، وفى يده اليسرى خنجر ، فصوب مسدسه إلى رأس الرئيس وضغط على الزناد . سقط لنكولن فى مقعده . ورمى الرائد راثبون نفسه على القاتل ، ولكن جون جرحه بخنجره ثم قفز فوق حاجز المقصورة إلى المسرح الذى كان أسفلها بأحد عشر قدماً . وأمسك مهماز حذائه بالعلم الذى تدلى من المقصورة ، فسقط ، ولكنه نهض سريعاً وصاح : « هكذا ينتهى الطغاة أبداً ! » وهى الجملة التى قالها بروتس عندما قتل قيصر . ساد الهرج وصعد جراح شاب من جراحى الجيش إلى مقصورة الرئاسة ، وأمسكت مارى بذراعه وقالت : « هل مات أيها الطبيب ؟ » فحص الطبيب تشارلس ليل البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً جراح لنكولن واكفهر وجهه . لقد أصابت الطلقة مؤخرة الرأس واخترقت المخ واستقرت خلف العين اليمنى . لم يكن هناك أمل .

حُمل الرئيس المصاب من كتفيه ورجليه وعبر به الشارع إلى أقرب منزل حيث وضع على سرير .

وجاء أعضاء الوزارة وكبار الضباط . وكان وزير البحرية من بين الحضور وقد كتب فى مذكراته : « رقد الجريح الغريب على السرير من زاوية إلى زاوية ، لأن طول السرير لم يكن مناسباً له ، وقد خلعت عنه ملابسه . وكانت ذراعاه الطويلتان ، اللتان كانتا تتعريان أحيانا ، فى حجم قلّ أن يتوقعه إنسان من مجرد منظره . وكان تنفسه البطىء الملىء يرفع الملابس مع كل نفس يلتقطه . وكانت قسماته هادئة مؤثرة . »

وأثناء الليل دخل لنكولن فى معركة مع الموت . وفى الساعة السابعة والدقيقة الثانية والعشرين صباحا كان كل شىء قد انتهى ، لقد أصبح الرجل الطيب العظيم فى سلام مع الدنيا .

« أى قائدنا .. إن رحلتنا المخيفة قد انتهت .

لقد عبرت السفينة كل الصخور ، ونلنا الجائزة التى سعينا إليها[1] . »

وفى سكون الحجرة الصغيرة سمع صوت يقول : « والآن أصبح ملكاً للزمن . »

(١) بيتان للشاعر الأمريكى والت وتمان . (المراجع) .



صورة التقطت لمستر أبراهام لنكولن فى اليوم السابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٦٠ ، وهو اليوم الذى ألقى فيه خطابه المشهور فى مدينة نيويورك .

As I would not be a slave, so I would not be a master- This expresses my idea of democracy— Whatever differs from this, to the extent of the difference, is no democracy—

A. Lincoln-

نموذج من خط أبراهام لنكولن . ويرى توقيعه فى أسفل الكتابة .



صورة الكوخ الخشبي الذى ولد فيه أبراهام لنكولن فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ .

تصويب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨	٢٢	تستدىء	تستدفىء
٤١	٢٤	ألا يضرب	المضرب
٤٣	٢	١٨٧٧	١٨٣٧
٧٦	٦	لتسكن	لسكن
٨١	٢	لاف	آلاف
٨١	١٠	دافز	دافيز
٨٧	١٣	هوارس	هوراس
٨٨	٣	ستيفين	ستيفن
١٠٦	١٤	هده	هذه
١٠٩ هامش٣ الاجتماعى عهده (فى المراجع) وصحتها: الاجتماعى فى عهده (المراجع)			
١١١	٢	شتت	شتتت
١٢٢	٩	فلعتم	فعلتم
١٢٣	١٧	رار	زار
١٤٥	١٢	لهدف	الهدف
١٥٣	١	١٦٣	١٨٦٣
١٦٧	٢	ذريك	ا . دريك

محتويات الكتاب

القسم الأول

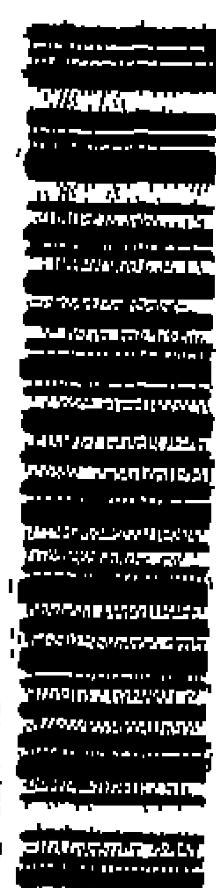
القسم الثانى

صدر عن

دار الكرنك

تحت إشراف وزارة التربية والتعليم

(مشروع الألف كتاب — والترجمة)



الثمن ١٢½ صـ